شوشة ، فاروق
الأعمال الشعرية / فاروق شوشة . ـ القاهرة :
الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٨ .
مج ٢ ؛ ٢٤ سم .
تدمك ٨ ٤٠٩ ٤٢٠ ٩٧٧ ٩٧٨
١ ـ الشعر العربى ـ تاريخ ـ العصر الحديث.
(أ) العنوان
رقم الإيداع بدار الكتب ١٤٨٥٢ / ٢٠٠٨

I.S.B.N - 978 - 977 - 420 - 409 - 8

ديوى ٨١١,٩

الإشراف الفنى
صبرى عبدالواحد

تصميم الغلاف : الحبيبة حسين

- إلى مسافرة
- العيون المحترقة
- لؤلؤة فى القلب
- فى انتظار ما لا يجىء
- الدائرة المحكمة
- لغة من دم العاشقين

إلى قريتى «الشعراء»

أمومة الأرض

والأهل

والشعر

فاروق شوشة

«أيها المسافرون، المثيرو الدّهْشة:

أية حكايا نبيلة نقرأ فى عيونكم العميقة كالبحار.

أرونا عُلب ذكرياتكم الثريَّة، حلىّ الأعاجيب

المصوغة من النجوم والأثير.

نريد أن نُسافر بلا بخار ولا شراع.

فدعوا ذكرياتكم فى أطُرها، تنْسم من الآفاق

على أفكارنا الممدودة كالأستار، لتغمر بالبهجة

مضيق سجوننا. وقولوا: ماذا رأيتم؟...»

«بودلير»

إلــى مسافــرة

أغنيـة مسافرة

إليك ... يا مسافرة

أغنيةً مسافرة

ليس لها أرضٌ ولا قرارْ

الشطُّ ناءٍ، والمزارُ يا فريدتى مزارْ!

وغُنوتى قصيرة، وعابرة

لكنَّ فى أعماقها انتظارْ

إليكِ يا مسافرة...

* * *

الحلم أثقل الجفونَ،، فلْنَنم
وعشّشت فى المقلتين زُغبُ أمنياتِنا الصغارْ
وديعة الغد الفريق فى رحابة العيون، والألم...
وَالَهفْتَا...
لو أقبل النهار..
طارت، وزفّ خافقٌ لدىَّ مستطارْ
يا ليل: يا حكاية الفراغ والشجونْ
يا أنتَ
ملتقاىَ والهموم والصحابْ
وموعدى مع السرابْ
مازال بين راحتى كتابْ
أوراقه البيضاء فى نقاوة العذراءْ
والأحرف العجماء فى سطوره شتاءْ
كئيبةٌ كمقبرة...
والهفتا...

لم تنخلع لومضةٍ أو خاطرة

ولا انتهت إلى كُليمةٍ تضىءُ فى الضباب

حياتىَ المهاجرة....

إليك يا مسافرة...

* * *

اللفظةُ التى تموت دون أن تمسّها شفة

وكان فى أعماقها بحار

والهمسة التى وراء مقلتين تختنقْ

وملءُ صدرها انبهارْ...

وغنوةٌ قصيرة وعابرة،

وسيلتى إليك

لو يُسعف النهارا!

تهاوت السنونْ

واحترقت عيونْ

وانهار من سقيفتى جدارْ

يا طول أن يلفنا انتظارٌ

إليك يا مسافرة!

(سبتمبر ١٩٦٠)

شىء يولد

أُحس التفاتَتَهُ..

همسهُ...

خطاهُ الحييات تنقر صدرى

ووقع أنامله الحانيات

فأغفو

وتشردُ عيناىَ، تشرد

أين القرار...

وهذا الفراغ بنفسىَ،

يفزعُ فى مقلتىَّ

ويحجب ضوء النهار

أُحسُّ انبجاسته

ملء جدران نفسى

يُثقّل خَطْوى

يشدُّ رؤاى الصغارْ

فيغمر نفسى انبهار

أأَنت؟

أأنت الذى أرقبُ؟

على بابك الموصدِ

خطاى، وأمسى، ولون همومى

وطرْق يدى

وأمنيةٌ خفقتْ مرَّةً

وغابت على حسرة المشهد

ولمحة شك

فيا ربما

أطل الرجاءُ بلا موعدِ

ويعبر يومٌ

ويا ربما

تسرب شيءٌ وراء الغدِ

أطلَّ... وطار

أأنت؟.. أأنت الذى أرقب؟

أأنت الذى أرَّق المقلتين

لكى يسفر الأفقُ الغيهبُ

رويدك

إنى ألوك الحنين.. وأستعذبُ...

عرفتك من خفقةٍ فى البعيدِ

وأخرى بجنبىَ... لا تكذبُ

عرفتك فى دفقةٍ كالحياة

تصب الحياةَ، ولا تنضبُ

فيافرحى أنت.. يا مولدى!

أأنت؟.. أأنت الذى أرقب!

يثقّلَ خطوى

يشدُّ رؤاىَ الصغارْ

وقد كان محض انتظارْ

* * *

سأدعوك توأمَ نفسى

وأُفسح من غوّرِ قلبى وسادا

ومُتّكأً.. أن يقرَّ الشعاعْ

ويسكنَ.. يسكنَ فى مقلتىّ

خفضتُ الجبينْ

وأغفيتُ.. علَّ الحنين

يبلُّ اللياعْ

طويت يدىَّ..

لعلك تدنو؛

وترفعُ هذا القناعْ!

(نوفمبر ١٩٦٠)

إلـى مسافـرة

لأن فى عينيكِ شيئًا غير روعة الألمْ
شيئًا نبيلا، عاريًا، بلا قناعْ
وعدًا حزينا، صامتا، كأنَّهُ حُلُمْ
لأن مقلتين ناءتا بثقَلِ الوداعْ
فارتختا ذليلتينِ
وانثنت ذراعْ
باردةً، مغلولةً، وأطرقت قدمْ
نظرتُ، فاتكأتُ، فاستدرتُ للضياعْ

ولفظةً تساقطت.. كأنها العدمْ

لأن فى عينيك كلَّ ما قرأتُ من عيونْ

وكلَّ ما صعدتُ من قممْ

لأن فى غَوْرَيهما تتابعت ظنونْ

واتَّشح الطريق بالسأم

أظلُ ها هنا... أطالع السنينْ

وانطوى.. مخافةَ التدمْ

* * *

قديستى !....

مازال صوتك الندىُّ فى دمى

شيئًا أثيريًا .. أضمُّه واحتمى

رنَّاتُه تدق أيامى.. تصبُّ فى غدى

تدّفق من أعماق نبع دافىء القرارْ

بالأمس ضمنى هُنَيهةً.. وطارْ

فرفَّ خافقى الملحُّ واستدارْ

وكدت ألمسُ النداء باليدِ

وأودعُ الليلَ حديثَ مطلعِ النهارْ

وهمسُك الرطيبُ ما يزال فى فمى

شلال تاريخ صنعناه بألفِ موعدِ

شيئا طفوليًا، برىء السمت، ناعم الإزارْ

واحة أمنٍ لم يزل

ولم نزل صغارْ؟

ياكَمْ تعرَّينا أمام مقلتيهْ

ياكم بكينا ومسحنا دمعنا فى راحتيهْ

ياكم حملنا وهمنا، ثم أرحناهُ عليهْ

عرفتُ فى خطاهُ وقع مولدى

ودفقةَ الحياةِ فى غدى

ذات مساءٍ

حين دق سمعىَ البعيدَ.. دقتينْ

طفلا حيّيا، مستطار القلب، هامس اليدينْ

مازلت أذكر السلام، أذكر النغمْ

ولفظةً تفجؤنى، تنفضنى من العدمْ

وموطنًا على القمم

وواحةً نديّةً كأنها حُلُم

بالأمس ضمنى هنيهةً وطار

أدرتُ عينىّ، وكدت أن أعانقَ النهارْ

فانسدّت الطريق بيننا كأنها جدارٌ!

* * *

يا طائرى... يا طائرى

خطاك فى دمى تسوخ، تنفض الأمان

وقع خُطاك فى الدَّرَجْ

وطرقةً.. وطرقتان...

يابابىَ الصغير، يا جدارىَ الكبيرْ

تألّق الطريقُ بالوهَجْ

وأشرقتْ من كُوَّةٍ يدانْ

نديّتان بالحنانْ

يا طائرى.. يا طائرى...

شىءٌ بأعماقى اختلجْ

تفتحت فى الصدر شرفتانْ

وانسكبت أفراحنا الصغار دمعتينْ

يا فرحَنا الصغير، يا عزاءَنا الكبيرْ

يا وهمنا الذى أضاء ساعةً وطار

تهدَّمت جوانبُ الأسى المريرْ

وارتفعت مآذنُ النهارْ

واتّسع الحلم.. وأورق المكانْ

ودوَّت الأجراسُ فى البعيد

وطرقةٌ.. وطرقتان

شىءٌ بأعماق يدقُّ من جديدْ

* * *

طوَّفتُ فى دمشق

فتشتُ عن فيروزتينْ

فى الأعين التى تكاد تحترقْ

وخلف هالات السواد والأرقْ

طوَّفت فى الوجوه، مرةً، ومرتيْن

عبرتُ كلَّ عينْ..

لا شئَ فى دمشقْ

إلا انتظارٌ وقلقْ

وأغنياتٌ لم تزل على الشفاهِ تختنقْ

وجبهةٌ شماءُ تَمْضى لا تقول أينْ

رخامُها أضاء واحترقّ..!

مدينتى التى تغيبُ فى لزوجةٍ بلا عرقْ

فى حضنِ عاشقٍ يناطحُ الهضاب والقممْ

ويغمرُ المدى البعيد.. يغمُر الأفقْ

بصفرةٍ لهيبةٍ.. كأنها مزقْ

بيت على الهضابِ، وارتفاقةٌ على السحاب

وموجةٌ خضراءُ تغمرُ السّهوبَ واليباب

ولوعة تغيب فى الحدقْ

الليل فى مدينتى كأنه سردابْ

طرقت، وانتظرت أن أخوضَ فى الضبابْ

فانشق من خلفِ الجدار بابْ

بابٌ حزينٌ صامدٌ، كصفرةِ الشفقْ

عبرتُه إلى دمشق

عاريةً، كعانسٍ تحلم بالشبابْ

لا عارَ فى دمشق

العارُ فى صمتِ العيون قد غرقْ

طوفت فى دمشق

فتَّشت عن فيروزتينْ

وكدت أن أغيبَ فى السرابْ

متكئا إلى يدينْ..

كومضةٍ، أطلَّ وجهُك الصغيرُ، كالشهابْ
أطل برهةً، وغابْ

* * *

فى لحظةٍ كنا نرودُ عندها الغروبْ
ونعبر الصمتَ الحزينَ فى جنازة المساءْ
قلبين هاربين من حكايةِ القلوبْ
وتائهّين.. ضائعّين.. فى العراءْ
فى اللحظةِ التى تحدثيننى وأستديرْ
لأدفىءَ الجناحَ خلفَ همسِكِ الوثيرْ
كأننى أطير :

«عيناكِ يا فيروزتى.. معبداىْ
قرأت فى عمقيهما عمرى
وقصة أفرغت فيها أساىْ
ينثال فى غوريهما .. يجرى
يا طائرى ضلت طويلا خطاى

واقــتــادنـى الماضـى إلـى الأســرِ

إن ألْتَفتْ تلفحْ جــبــيـنـى رؤاىْ

منقــوشــةً فى ذلك الصــخــرِ

دفـــقًا أثيـــريًا، يغطى هواىْ

وينفض الأحــزانَ فى صـــدرى

تمتــدُّ من خلف الليـــالى يداىْ

لتطلقــا الأشــواق فى فــجــرى

عـيناك لم تعبـرهما مـقلتاىْ

إلا وضـــجَّ الــوهــمُ فـــى فـكــرى»

* * *

هذا أنا..

فى اللحظة التى نكأَتْ عندها الغروبْ

فى نَفَسٍ موطىء القدمْ

تحدَّرت غيومه الثقال دمعتين

وارتفعت هواجس الظُّلَمْ

وأنتِ، وارتماشة اللقاء فى اليديْن

كأَنها حُلَم

تساقط المساء، وامتدت جنازة الشحوب

لم يبق لى غير الهروبْ!

(فبراير ١٩٦١)

فى الليل

كما يتسلَّلُ حزن المساءِ

وترتجف الفكرة العابرةْ

ويسقط شيءٌ ثقيلُ الخطى

يقيّد فرحتَنَا الغامرةْ

وتمتدُّ من خلفِ أيامِنا

رؤى غائماتٌ الأسى والحنينْ

وأطياف ليلٍ بعيدِ القرار

حكاياتُه رسبت فى الجبينْ

مددت يدىّ

حملتُ الذى ضاع من وهمِنا

وجئتُ إليك

وقفتُ على ذلك المنحنَى

أنادى عليك

وأهتف: قد تَعِبَتْ مقلتايا

وأنَّ طريقا بلَونِ أسايا

قطعت، لعلّى أرى شاطئيك

وأن انهمارَ الليالى

يُباعدُنى عن يديك...

وأنـكِ فـى كـل شـىء تبـــــــقـى

لـدىَّ، وفـى كل نـبض حــــــزيـنْ

خطـاكِ، وأنت، وشـىء حـــــيىٌّ

تســرَّب فى صـفـحـات العـيـونْ

وأوغـل فـى عـــــــمـق أيـامِنـا

يــداه تشـيـران للمـسـتـحـيلْ

وتستشرفان الوجودَ البْعيد

كما تتلاشى أغانى الرحيلْ

أيحملنى الصمت فى وحدتى؟

أيقذفنى للقرار البعيدْ؟

لعلِّى إذاما دنوت إليك

جثوْت.. بكيت..

نكأتُ جراحى...

وأسعفتُ بالدمع قلبى

وحبّى الوحيدْ

وفى كل منعطفٍ... والتفاتة

سكبت نواحى

وهدَهدتُ فى أذنيك النشيدْ

لعلك تغفو

وتصبح فجرى الجديدْ...

نحبُّ، وتنأى مسافاتُنا

وتجمعنا الغربةُ اللافحةْ

ونطفـو على غـيـمـة كـالأثيـر
تهـدّمـهـا الرغـبـةُ الجـامـحـةْ
وتفــجـؤنا لحظة كــالمحــال
وشىءٌ نــدىٌّ كـوجـهِ الطفــولةْ
وتُرْعــشنا رجــفــةُ الذكــريات
تعــيــد حكايا الليــالى الطويلةْ
لأنى وحيدٌ
سأَبقى طويلا ببابكْ
لأنى بعيدٌ
سأرقب فجر إيابِك
لأنى صغيرٌ
سأعزف لحن شبابك
لأنى تعرَّيْتُ دهراً
ستدفئنى فى إهابك
لأنى حزينٌ
سأجرع نفْس شرابك

(مارس ١٩٦١)

قطرتا سلام

لو قطرتان من سلامْ
تركتَ يا مودعى
سكبتَ بين أضلعى
حين استدار محملك
وخفَّ من بين الضلوع خافقٌ يظلّلك
وارتفعت شعاعةٌ إلى البعيد... تحملُك
وغامت العيونُ... لا كلام
الشوقُ والأحزانُ واستدارةُ النسيانْ

كلُّ الذى معى...

ووهمُ شىء غامضٍ فى صدرنا استكانْ

والهفتا...

من ساعةٍ تفجؤنا فى مُقبل الزمانْ

تهدَّمت على جدارها مشارفُ الأمانْ

من لحظةٍ ممرورةٍ كألفِ عامْ

عن العيون.... تفصلُك....

* * *

يا حُبَّنا.... يا حُبَّنا....

إنا جحدناك... تركناك وحيدًا للرياح

وعاريًا بلا جناحْ

غبنا مع الضباب، عدنا عند مطلعِ الصباحْ

لكى نراك مشمسًا وضاحيا

تمد راحتيكَ بالأمانْ

يا حبنا....

لم يبق إلا الليلُ والفراغ والأحزانْ

وساعة على الجدار مات فوقها الزمانْ

مكبَّلاً... وخاويا....

إنا أتيناك يتامى مجهدين غرباءْ

فهل يضيق صدرك النبيل عن مكانْ!

يا غافر الذنوب يا مُجدِّدَ الرجاء

إنا ترصَّدنا خطاك فى رحابك الفساح

ثم التفتنا لم نجدْكَ... لم نجدْ عزاءنا

لا تنسنا...

نحن الذين كم حَملْنا وهمَنا المباحْ

فى مقلتيك...

وكم رشفنا قطرتىْ ضوء وقطرتىْ حنانْ

من راحتيك

أيام كنا عند بابك الوثير

التابعينَ.. الأوفياءْ..

إنا نسيناك... وجئناك عرايا تعساءْ

لا تنسنا...

حتى وإن عدت إلينا يا ربيعنا المطيرْ

مخضّبا كالذكرياتْ

وقاسيا كالذاكرة

وباردا كصفحة الرخامْ

حتى وإن حدثتنا دون كلامْ

ابقَ هنا...

فلم يعد لنا سواك... لم يعد لنا

من أجلنا...

من أَجل كل المتعبين فى الظلامْ

والظامئين مثلنا...

لقطرتين... من سلامْ

(اكتوبر ١٩٦٢)

الصمــت

لا تصمتى...

الصمت يفضح العيونَ،

يُشعل الظنونَ

يهدم الجدار بين عاريينْ

عيناه تكشفان وجهىَ الحزينْ

وتبصران فى المدى... دروب لوعتى

حديثكِ العقيمُ يا ثلجيةَ العيونْ

يا طالما نَسجت من حروفه رداءْ

لأتّقى عيونَهم... دوَّامة السكون بين واجفيّن

وهمًا حسبناه يذيب قبضة الشتاء

ويَنُفض الحياة فى عروقنا

يا طالما كتمت خلفه أساىٌ

لأن طعمَه المرير فِى حلوقنا

لأن جرحًا فىَّ ما يزال

أحّذر أن تلمسه الأكفُّ والعيونٌ

وقد تسيل من فمى حكايةٌ عجوز

وقد أقول ما يقول الناس ساعةً ويلغطون

شيئا غريبا... شائها

يفصلنا كأنه جدارٌ

يسترنا كأنه إزارٌ

يقتاتُ فى الظلام من دمائنا

ويستحى أن يطلع النهارٌ

تضمُّه يداكِ... تحسبانِه كنوزًا

لكننى أقسمُ لك

بكل لفظ لم أقله، لو أقوله لكان سجنىَ الكبيرٌ

فإن فى ألفاظنا مكامنَ الأعداء

الصوت ليس صوتىَ القديم

ولا الحديث بهجتى وسلوتى

ولا الذى قلناه نَمَّ عن غرامِنا الدفينْ

محض اشتهاء كان يومها، محض اشتهاءٌ

وقد صحوت بعدها...

وانهار وهمىَ العظيم..

* * *

صديقنا الحزين يتَّقى العيونَ بالسؤال

يلقيه فى وجوهنا

يفجؤنا...

يُطير من رءوسنا الملال:

«ماذا لو احتضنتُ رأسها الصغير فى يدىٌ

مَسَّحتُ بالعينين مرةَ على الجبين

نفضتُ من طريقنا المحالْ

لو استدرتُ فى الطريق مرةً وصحْتُ فى الجموعْ

بأننى لمستُها...

قبَّلْتها...

أسمعتها لواعجَ الشجونْ»

وبلَّلت حديثَه الدموعْ

يا صاحبى، يا صاحبى الحزينْ

الصمت فى الطريق قيَّد الشفاهَ والعيونْ

تصدُّنا الأحزانُ والجدرانُ والسكونْ

وكل شىء واجف كأنه يموتْ

حتى غرامنا صموتْ!

* * *

الصمت ظلَّىَ الخجولُ.. كم أُحسه وراءَ خُطوتى

هذا الفضولىُّ الذى تشوقه حكايتى

أهرب من عينيه.. من ظلاله على الطريق

لأنه هنا.. لأنه هناك

أراه فى الأحزان، والأشواق، فى استدارة الشروق

فى كل ما تنطقُه الشفاهُ والعيونْ

مُمدَّدًا ... بلا حراكْ

من طول ما ملَّ حديثَنا العتيقْ

وصوتَنَا الذى تنوشه الظنونْ

كأنه جنونْ

* * *

الصمت منطق الحياةِ فى زماننا

لأن كل شىء فى شفاهنا نباحْ

الصمت مجدنا وعارنا

صمودنا الجليل.. وانكسارُنا

لأن بيننا الذى قضى

وبيننا الذى أصاب، فاستراحْ

الصمت مهما طال تيهنا، ملاذنا

لأننا مُغلّلون بالجراح....

الصمت يأسُنا الكبير... وانتصارنا

لأن شيئا قادمًا... كأنه صباحْ!

(ديسمبر ١٩٦٢)

بكائية

لأن الصمت يُرْهقنا، ويفصلنا، ويقصينا

لأنَّا لم يعد وعدٌ ولا وهمٌ بأيدينا

لأن متاهة النسيان تجرفنا

وتلفحنا...

وقد مات الصدى فينا

لأن العمر ما عشناهُ إلا خَطْوَ مرتعشين

ليلا واجف الرؤيا

يُغلّلنا ويشقينا

حملتُ الأمس، والذكرى، وصوت المجهد الوانى

وجئت طريحَ أسفارٍ

وأغوارٍ تناديننا

كأنا ما قطعناها هوى فى القلب مكنونا

ولا كنا هنا يوما

عل يدها مصلِّينا

ولا انسكبت على أحجارها أبدا مآقينا

كأنا ما التقت راحاتنا إلا مُعزِّينا

لقد مات الأسى فينا!

* * *

الريح عند بابنا

هناك تعوى ما تزالْ

فى صمتها اللجوج فى ارتطامها العنيفْ

بقية من السؤال...

أين انتهت أقدامنا

وكيف أطبق الزوالْ

وانسحقت من خلفنا

يدٌ تطوّق المحالْ

الريح عند بابنا

الريح ما تزال

ووحشة تقيِّدُ الزمان، تُخرّس الظلال

وألف صوت قادم من لا مكانْ

فحيحها كأنه مغارة النسيانْ

وأعولَتْ عين... وأطبقت يدانْ

الحزن دق بابَنا

والصمت والملالْ

* * *

لأنَّا ما عرفناهُ

هوى قد كان يملؤنا ونرعاهُ

لأنَّا حينما اضطربت ملامحنا افتقدناهُ

وكان بلَوْنِ رؤيانا

برىء السمت، تطربنا حكاياه

نزلنا عند سَفْحِتهِ

وغبنا فى حناياه

وقلنا : نحمل التذكار والأمس الذى فاتا

وجرحا خلف ماضينا دفنّاهُ

لعل يديه تنسكبان أفراحا وميلادا

يُعيد الصحو والأنفاس للوهم الذى ماتا

ولكنا حملناهُ

وقلنا : نسأل الخلانَ عن شىء نسيناهُ

لعل الصفو يُعْوِزنا

لعل الفجر نلقاهُ

وقلنا نعبر الأيامَ والأبعادَ متئدِيْن

عجوزىْ حكمةٍ شاخت

وعند صحائف الأحزان متكئين

لتسعفنا بقاياهُ

وقلنا .... آه كم فاضت بلاغتنا وقلناهُ

وحين التفتت عينٌ ورفَّت ما وجدناهُ

لأنا ما عرفناهُ!

(يونيو ١٩٦٣)

اعتـــراف

قف...

لم يعد سواك فى نهاية الطريق ... قف

وذلك الذى حسبْتَهُ الرفيقَ دار وانعطفْ

ودون لفظة الوداع غابْ

لا خَطْوَ... لا ظنونَ... لا ارتيابْ

إلا صدى يئزُّ قبل مطلع النهارْ

ولعنةٌ معادة كأنها دوارْ

لم يَبْقَ فى أكوابهم ما يُحتسى

ولم يعد فى قَبْوهم من يرتشفْ

قف...

لم يعد سواك ينثر المحارْ

فى قاع وهمه المغلَّف القرارْ

ولم تزل يداك عند كل بابْ

تعانقان شوقك البعيد للإيابْ

ورعدة باردة كأنها تذكارْ

وظلك الذى استطال ساعةً على الجدارْ

أراه من حول السنين يرتجفْ!

* * *

يا مُخجلى!..

متى أراك ترفع الغطاء، تكشف الستارْ

عن لون ما تراه فى العيونْ

متى أراك يا مُعَلِّلى

تقول للمسىء: قد أسأْت -

لقاطع الطريق: أنت قاطع الطريقْ

متى أراك... لا تهون

لو مرة تقول: أنت

أنت الذى أعنيهِ بالكلامْ

غدرتَ بى يا أيها الصديق

طعنْتنى يا موئلى...

فلا تُدر خطاك... وارفع اللثام

عن وجهكَ المحجّب العميقْ

* * *

يا مخجلى

متى أراك تنفض البلى الذى أصابنا معا

أصابنا فأوْجعا

تعيدنا لجوهر الحياة فى عروقنا

تقول أنت كِلْمَتك

تسمعنى حكايَتك

تزيل عارنا.. غبارَ عصرنا

لأن حقدَنا نما وأمرعا

متى أراك قد خطوت خُطوتَكْ

مددتَ للحياة عزمةً بعمق يأسنا

لم تفقد الرجاء... لم تخف

يا مخجلى يا لعبة الصغارْ

قف... لم يعدْ سواك فى نهاية الطريق... قف

متى تصيح مرة.... وتنفض الغبارْ

متى... متى.... وكيف!

(سبتمبر ١٩٦٣)

تائـه على الخليـج

عند المدى المسدود ألقينا الرحالْ

جَمَحت مراسينا....

لوت أعناقَنا ريحُ الزوال

ماذا؟... وأطرقت العيون

وتحدَّر الصمت الحزينْ

وامتدَّ من خلف الظلال

شىء يشد الراحلين

يلقى بهم فى هُوَّة المجهول، فى رعب المحال

شئٌ كخطوهمو سجين

لم يبق غير صدى لهاثٍ.... وقع أيام ثقالْ

وعزيف لحن خافت... عبر المفاوز، فاستحالْ

بعضَ اصطبار، بعض تأساء، وحشرجة ابتهالْ

يا عابرين متاهة النسيان من خلف الليالْ

يا راكضين مع الشعاب مضرَّجين بلا ملالْ

الهاربين إذا رؤى الماضى تمطَّت فى العيون

أنا بعض رحْلكمو على ظهر السفين

لو أنها طافت على البلد الأمينْ

يا جانحين إلى الخليج... كأنَّ فردوسَ السنين

هبطت به الدنيا على قاع التلال

فإذا الذى يوما ظنناه يُنال

وهم خَريفىٌّ... تسرّب فى الرمال!

* * *

هذا المسجَّى... شاحبا أبدا أراهْ

فى وجهه الزيتىِّ شىء قد تقلص فى الشفاهْ

شىء يغيم... ولا يبينْ

وكأنه ثأر قديم... كم تنوء به يداهْ

وأمرُّ تلطمنى صواهُ... كأنَّ كفيه سؤالْ

أو لعنةٌ جمدت على وجه تسربل بالضلالْ

جمدت وأدركها الملالْ

هذا المسجّى تحت مجداف السنين

فى صمته اللجىِّ قاع سرمدى كالخيالْ

مخرتْهُ أحزانُ الرجال... طوته أنيابُ القرون

يعطى ويمنح لم يزل.... دنيا من الورق الحلال

إلا بقايا ثورةٍ... هو بانتفاضتها ضنين

يا ويحه... خطوى المهين

وأنا أَشد إليه أَيامى... فيدركنى الكلال

هيهات ترتعش الحياة

وهُنّا وترتفع الجباهْ

عن حفرة عبر الرمالِ... تشدُّ أعناق الرجالْ!

* * *

يا تائهًا عند الخليج.... يكاد يلفظك الخليج

أبدًا تُهاتى بالحكايات الطوال

وتظل تهرف والأكف تشير نحوك بالجنونْ

فإذا الحقيقة فى عيونهمو خَيال

وإذا التغنى فى قلوبهمو نشيجٌ

والهفتا... لو أنقذتْك يَدُ السنينْ

وعرفت أن هناك شيئًا لا يقال

الوهم يعصف بالرجال!

الكويت (ديسمبر ١٩٦٣)

كلمات للعار

لأنه عارى..

عارى المدلّى فوق أقدارى

أُخفيه حتى لا يمر الزمان

يوماً على أنقاض تذكارى

كى لا تُحَيِّينى طويلا يدانْ

قد ناءتا من رحلة الثارِ

ملقى به نِسّياً وراء الرمال

حتى تعود الخيل بالغار

يطفـــو عليـــه من أســـانا ظلال

وصـــفـــحـــة شـــوهاءُ كـــالقـــارِ

لأنـه عـــــارى الـذى مـــــا يـزال

جـــرحـــا ســـديمـــيًا بأغـــوارى

وعـــاركم، يا جـــامـــعـــين الغـــلال

مـن كل حـلقـــــــومٍ ومنـقـــــارِ

يا طامـــعـــين ـ الدهـر ـ غِبَّ الزوال،

بعضَ انسكاب الوهم، بعض الخـيـال

فـــى عـــــــــــودةٍ لـــلأهـل والـدارِ

يا حـــاملين الأمنيـــات الثـــقـــال

عـــبـــئًا توارى خلف أســـتـــارِ

وجـهـــا ذليـــلا واجـمـــا مـســتـعـارْ

لَم يخـــتـلج فى لفح إعـــصـــار

الأفق كـــابٍ... يا شـــذا البـــرتقـــال

أزهِرْ وأمـــرع فـــوق أشـــجـــارى

وانشر جناحىْ نضرةٍ وازدهارْ

على روابى حلمنا العارى

الموسم المخبوء، أثقاله

تنعى دواليه، وتبكى الرجال

والهفتا والهدب عار كسيحْ

والموسم الدانى خصيب التلال

والهفتا والحزن ثاوٍ طريحْ

وقبضتاه تنشدان المحال

وبارقٌ طفْنا به.. فاستحال

بُقْيَا رماد.... لم يعد فيه روح

لا نبض فى عروقه.... لا جروحْ

يافا... ومازالت عيون الصغار

مشدودةً للشمس كفّىْ مسيح

أخفيه فى أعماق أسرارى

لأنه - واخجلتى - عارى!

* * *

مَنْ لى بمن يستوقف الحائرين -

يوما إذا ضلوا .... فلم يعبروا

من لى بمن يوقف زحف السنين

تراكمت ثكلى... فلا أُبصرُ

إلا خطايا، عششّت فى جبين

جاثٍ على الأعتاب يستغفر

من لى بمن يفضح زيف الحنين

إلى ديار فى المدى تخطر

لما نسينا أننا عائدون

وأن يوما قادما يثأرا

* * *

يا شيخنا... فى خيمة الشتاءِ

ذُبالةٌ تهتز... كارتعاشة المساءِ

يَوْماً حملناها... وسار واحدٌ

منا.. يدق أَرض كبرياءِ

ولم نكن ندرى بأن زيْتَها

معلق بلفحة الهواءِ

تنداح منها للطريق شعلة

مخنوقةٌ كشهقة البكاءِ

يموج ألَف فارس... وفارس

على دوالى نورها الظِّماءِ

ويستفيق غافل وهاجع

يعانقان صحوة النداءِ

ولم نكن ندرى بأن دربنا

تقودنا للأمس... للوراءِ

تعيدنا لساحةٍ مهجورة

أنكرت فى شعابها دمائى

تعيدنا للحظةٍ ممرورة

فقدّتُ عند بابها رجائى

حتى صحونا.... فاكتست رؤوسنا

لما اشرأبت.. ومضة العزاءِ

ذبالة كانت لنا ولم تزل

يا شيخنا... فى خيمة الشتاءِ!

* * *

قوافل الحجيج فى العراء ما تزال

عازا مبعثرا على الرمال

عارا مُلحًّا.. كاسف السؤال

يسألنى... يسأل عن رجال

نجيعهم كم خضَّب التلال

وسال يسقى «الكرْمل» الأمين

يا عارِنا... يا عارنا الحزين:

أنا وأنت والكروم والظلالْ

بقيةٌ من السؤال!

الكويت (يناير ١٩٦٤)

دعـوة إلـى النسـيان

دموع بكائنا، وصراخنا المحموم، والأحزانْ

وسرٌّ قد قد كشفناه...

نضوْنا عنه أستارا مضللة وأعمارا

وحدقنا إلى أعماقنا نجلو خفاياهُ

لكل الناس نمنحه، ونُقْعِى فى زواياهُ

ونسأله عن الأحباب أخبارا

وكنا نحفظ العهد الذى باحت به شفتانْ

ونملك هامة الرؤيا التى ما طالها إنسانْ

مجنّحة تلامس أفْقَنا الساجى... وترقاهُ

حملناه على أعناقنا حتى ألفناه

وعَوَّدناه أن يُلقى بنا قسرًا ويطرحنا

وأن نجثو إذا صرنا على بابه

وعودناه أن يعصى أمانينا، ويفجأنا

وأن يطغى فنهواهُ...

ألسنا بعض أحبابه!

تلقفناه... لا يرتاح إلا بين أعيننا

وفى أهدابنا عَلقَتْ مُباركةً بقاياهُ

وأرضعناه من جوع السنين ويتّمها العارى

وواعجبا.... تبدلَ ما صنعناهُ

فأمسى محْضَ تذكارِ

وصرنا بعدُ نخشاه

دموع بكائنا.... من ذا يكفكف فَوْرة الطوفانْ

ويمسح وجهنا المطموس بالعارِ

ويحملنا على كفّين صامدتين للنارِ

وغافرتين... للنسيان!

* * *

أتينا بابكم، يا أهلنا الأحباب، جئناكم

فهل فى أرضكم عن حُلمنا المخبوءِ أخبارُ؟

طرقْنا، لم نجد صوتاً ولا ضوءًا ولا نأمة

وحين تحشرج الصبر الطويل، وغاضت البسمة

تقلَّص فى جوانحنا هوى مُضنىً وتذكارُ

وفاضت من محاجرنا رؤًى لهفى وأسرارُ

كتمناها وراء الصمت، خوف الصمت يفضحها

وخوف تلفُّتِ العينين فى أحداقنا الجهمة

سنرجع، لا دليل يؤنس السارى ولا نجمة

وقبض الريح والأحزان ما ملكت مصائرنا

ولا وجه يطل على مآسينا، ألا نسمة؟

تعود لتمسح الهدب الكسيح وتغفر الظلمة

ألا إعصار

عتىُّ الخطو، يذرو عن أسانا ما عَلِقناهُ

فطعم الصفو والبشرى نسيناهُ

سنرجع دونما حذر، ووجهَ الموت نختارُ

ونصرخ أَننا ضعنا، وأن الليل غدارُ

ونُلقى فى فم الذكرى عزاءً يائس النقمة

سنرجع دونما ظفر، فقد دميت أظافرنا

وأقعدنا أسًى عارٍ، وجوع صارخ فينا

وتاريخ قطعناه، وداسته حوافرنا

من الأعصاب والأحزان صُغْناهُ

وعشنا الدهر نكتم فى قرار حلوقنا سهمه

ونطرح عبئنا ملقى على وهمٍ عبرناهُ

وتُسقطه شجًى مرا .... مرائرنا

دموع بكائنا تنهلُّ... لا صوتٌ.... ولا رحمة!

* * *

دموع بكائنا، وصراخنا المفجوع، والتذكارْ

وليل قد حشوناه، ملأناه أَسى وغبارْ

وعِفّناهُ...

وكان عزاءنا المخضوبَ بالشكوى

لعل مآتمَ الأحزانِ تمنح يأسنا مأوى

وتسدل فوقه الأستارْ

سنفسح من مآقينا، ومن أكبادنا سلوى

ونضفى من ظلال الموت، من جدرانه مثوى

لعل الموت يرجعنا إلى شىء نسيناهُ

عبرنا برزخ الموتى.... وطعم الموت ذقناهُ

ومن آثاره الحمقى... حملنا ما حملناهُ

وجئناكم على يدنا بقايا رحلة للعارْ

وألقينا إلى النيران شيئا لاهثا كالنارْ

هشيما نحن سميناه: ما نهوى!

لقد ماتت بقاياهُ

ومات «الليلُ» و «الآهُ»

الكويت (مارس ١٩٦٤)

تحت سماء رمادية

يالي!...

وقد تقصّفت على سياجنا جدائل الهشيمْ

وانهار ما خلناهُ مرةً عزاءنا

لما عرفْنا صوتهُ ووجهه الدميمْ

فلم تعد تشدُّنا سيقانُنا

يؤودنا العبء الذى رمى بنا

نسوخ فى مخاضة الشتاءْ

فننحنى...

مكابرين... نُمسك الهواء

عاريةً ظهورنُا

تلْسَعُها سياط كبرياءُ

يا ويلتا وأوجه الأساةِ لا تريمْ

لو كان يجدى مرةً حديثنا العقيمْ!

من بعد أن تمزقت وحشرجت حلوقنا

لعلّهُ يعود صوتُنا القديمْ!

* * *

عينى على نجم بآخرِ السماء

فى هَدأةِ السكون جاس برهةً وغاب

لو يستطيع! مَدَّ لى شعاعتينْ

وأغرق العيون بالضياءْ

لو أستطيع! لو خطوت خطوتين

إذن لبدَّدتْ خطاى قبضةَ السحابْ

وفَرَّ من أصابعى السرابْ

وانكشفت غشاوةٌ عميقةُ العماء

وكيف؟

والطريق بيننا صقيع...

من يوم غاب وجهه الوديعْ

واصطدم الخريف بالشتاء!

* * *

أجناسنا شتى ... حديثنا شتات

لن يسمعَ الذى تقولُ مَنْ سمعتَه يقولْ

فاللفظةُ الوعاءُ أصبحت رفاتْ

ولن يمد طَرْفا من حملْتَهُ وفاتْ

فكل ما تبقى فى أكفهم فُتاتْ

وليس ثَمَّ ساحة.... ولا دليلْ

فبارك الجميع، بارك النعيب والهديل

وغَنِّهم، بكاؤك اليتيمُ أُغنيات!

(يناير ١٩٦٥)

كلمات مرتعشة

منذ أعوامٍ...

وكان الحب يأتى بابَنا...

طارقاً، يسأل عن مأوى وأمنٍ وظلال

لم يكن يخطىء يوما دربّنا...

قادماً... أروعَ من كل خيالْ

ينفض الفرحةَ فى أيامنا

صلواتٍ.... وحكايات.... وابتهال

منذ أعوامٍ غفونا مرةً

وتحدَّيْنا بكفَّيْه المحالْ

* * *

منذ أعوام غريباتٍ... سحيقة

كان شىء ملء عينيْنا.... صغيرٌ ووديع

هامسٌ... يلمس فى الدنيا طريقه

وعلى كفَّيْه.... أحلامٌ وزهرٌ وشموع

نحن صورناهُ من أوهامنا

وحملناهُ على أهدابنا

طفل دنيانا البديع

نحن أطعمناهُ من جوع السنين

وسقيناه جراحات الحنينْ

وجعلنا شَدْوه قيثارَنا

نَغَماً يطفر من بين الضلوعْ

قبل أن يُفلت منا ويضيعْ!

* * *

لم أزل أرقب فجرا غارقا فى خاطرينا
ضمَّنا يوما، وغنَّيناهُ، فاهتز إلينا
عُدْ لنا... لا تنسنا... فى شفتينا
لك نجوى، وشكاوى، ودموعْ
عد لنا أنت ولو غاب الجميعْ
أنت يا أول حُلْمٍ... وربيعْ!

«٢»

لأنى جئت عُريانا... وقلت ألوذُ فى بابكْ
ومسَّحتُ الجبينَ الرطبَ فى لثماتِ أعتابكْ
لأنى لم أزل مستوحشَ الأيامِ والرؤيا
تغرَّب فى عيون الناس، واهتزت به الدنيا
أظل هنا.. أتمتمُ باسمك الغالى.. ومحرابك

* * *

لأنك لم تزل فَرحَى وجوعى السَّاغب الظامئْ
وسراً ملء أيامى يغلِّف وجهك الدافئْ

وتاريخا من الآباد والأشواقِ والذكرى

أخوض به مسافاتٍ وأطوى نحوه العمرا

وأسأل نفسىَ اللهفى: متى نرسو إلى شاطئٍ

* * *

لأنك أنت تاريخى، وأعماقى، وأسرارى

لأنك فجر ميلادى ووجهُ ربيعىَ العارى

عبرت إليك أياماً مفزَّعةً... بلا معنى

وجُزْتُ إليك أحزان الغريب التائه المضنى

أفتش عنك! كيف! وأنت مخبوءٌ بأغوارى

* * *

ملاذى... لم أزل أهفو إلى آفاقك النشوى

متى يرتاح هذا الخافق الدامى.... متى يَرْوَى

جناحك أين ضمَّتُهُ، وأين حفيف أنسامكْ

ودفء خطاك، والأيدى تبث خفىَّ أنغامِكْ

متى! وإلامَ! إنى أُغرِقِ الأحزانَ بالسلوى

«٣»

بيتُنا...

غاب عنه القمرْ...

بيتنا...

لم يزل ينتظرْ...

صوت أحجارِهِ

همسُ أَستارهِ

مقعدٌ كان مِلْءَ البصرْ

معبدٌ كنتَ تهفو لهُ

قد نما حبُّنا حولَهُ...

حدَّقت كلُّها تسألُ:

أين يا طائرى ترحلُ؟

أوْجَسَتْ حين طال المغيبْ

وأنا حيرةٌ لا تجيبْ

فى يدى من هوانا أثرْ

يا تُرى، كم يغيبُ القمرْ!

* * *

أمس...

حين استدار الشعاع

ونطَقْتَ الوداع...

كان شئٌ حزينْ

غارقٌ فى العيونْ

وانطوى مشهدٌ لا يغيب

وحكايا مساءٍ كئيبْ

غاب فيه القمرْ

حين جاء الصباح...

كان صوت الجراحْ

صوت ماضٍ عبرّ...

فى دمى.. لا يقـرّ...

* * *

صوتك الوادعُ

همسك الرائعُ

بسمة أسكرت مقلتىّ

وسرى دفؤها فى يدىّ

كل شىءٍ هنا...

شاهدٌ أَننا

مرةً قد نعودْ

ويعودُ الوجودْ

فى غدٍ.. حلم عينْ

رعشةً فى يدين

خفقة فى جناحْ

هل يجىء الصباحْ

حاملا غنوتينْ

يا صديق الرياحْ

أَين مسراك... أَين

كم عبدّنا خطاك

خطوةً.. خطوتينْ..

يوم طافتْ يداكْ..

طرقةً... طرقتين

عُدْ إلى عشنا...

عُدْ فإن المنى...

لم تزل تنتظرْ

عُدْ... فإن الحنينَ

وانهمار السنينْ

واحتراق العيونْ

ظامىء للمطر

عُد لنا... يا قمرا!

«٤»

ماذا أَحكى! ماذا أَحكى!

وعلى صدرى، وبكفَّىَّ.. بقايا أطياف الأمس

أشياءُ تغيبُ بأعماقى، وتظل حكايا فى نفسى

ماذا أحكى!

يا مالئتى أسراراً فى طعمِ الهمسِ

لحناً... أُغنيةً... موسيقى

تصَّاعدُ دوماً فى كأسى...

* * *

خَطْوكِ.. هذا التوقيعُ الراقصُ.. هذا المخمورْ

ينزع أعماقى... يغرقنى فى وهج النور

يحملنى خلف شعاعات أندى من لمسات الحورْ

لمسافات.. لمسافات.. أرتاح عليها وأدورْ

خطوك، هذا النغم الهارب من كونٍ مسحورْ

* * *

لو طالت جلستنا.. ماذا كان يقول القلبان؟

اثنان وراء الليل... وراء الأبد الغافى الوسنان

ونسيّمات أندى ما عانق روحى من ألوانْ

وحديث يقطر فى سمعى كلمات نشوى.. بل ألحانْ

حتى لكأَنَّ الزمن الهادر كفَّ عن الدورانْ

وانطلقت أمنيَةٌ ظمأى، وارتعشت بالحب يدانْ

وهفا فى صدرينا شىء يمسح تذكار الأحزانْ

شىء يرسب فى الأغوار، ولكن تكشفهُ العينانْ

ماذا أَحكى؟ ماذا أَحكى؟..

ما زالت ملْئى كلماتٌ.. أغلى ما يحملهُ إنسانْ

تصَّاعدُ من عينيك... وتنقلها حتى الجُدران

وخطى تنسابُ مع الأنغام ويزحمها شوقٌ لهفان

وذراعان التقتا مثل عناق الموج أو الطوفانْ

وانسابت فى الضوء الوانى من جُرحينا أُغنيتان

وعطورٌ لا أدرى كانت همس حديث أَم ريحَان؟

* * *

ماذا أَحكى...

يا مالكة الفيروز.. ويا دافئة الألوان

يا عبقا عانق أنفاسى.. فجَّر فيهن التحنانْ

يا أَعمق أعماقى.. يا واحة خِصْبٍ وأمانْ

سيظل هوانا.. ما دامت فى صدر هوانا رئتانْ

سرًّا يحكيه القلب... ولا ترويه الشفتانْ

«٥»

من أى أُسطورة... من أى قيثار

أشعلتِ أُنشودة ظمأى إلى النارِ

يا مرفأً لا تضل النفس ساحته

وكيف يخفى شغافٌ خافقٌ عارِ

رأوْكِ فى كلّ لفظ قد نطقتُ به

وتوَّجوكِ على شدوى وأَشعارى

أبّحتُ أيامهم شجوى.. فوافرحى

أَنى ابحتُ لهم دنّى وأوتارى

وجئتِ من قاع أيامى على وتر

تهتز أعواده فى كف جبّارِ

يا صورةَ الأبد الحانى.. ويا ألَقاً

مَشتْ خطاهُ على غَيْبى وأعمارى

طيف من الذكرى يسرى بأَعتابكْ

إن طاف أو مرّا فى كأس أحبابكْ

أبصرتهم هاموا فى قدس محرابكْ

أرواحهم نشوى ظمأى لأعتابِكْ

يا ليتنى أبقى وحدى.. على بابك

عيناك فى خاطرى دوما وفى خَلَدى

دنيا كنوز وأشواقٍ وأسرارِ

يا صَوْتهَا فى ضميرى: لم تزل نغما

يفجّر الشَّجْوَ فى أعماق أعماقى

ويا خطاها على سمعى موقّعةً

كأنها نبضُ أرواحٍ وأشواقِ

ولفِتَةً من حياة لستُ أذكرها

إلا كما اكتحلت بالنور أحداقى

وأســتـفـيق على عـينيك، يا حُلُمى

ويا مــــزامـــيـــر أيامى وأوراقى

وبارقًا كم سـقـانا خـمـر نشـوته

رفــقــا بألأَفِهــا يا أيهــا الســاقى

مــاذا لـو اتحـــدت أبعـــادُ غُرْبتنا

وطوّف العطرُ فى وهمى وآفــاقى!

«٦»

إلـيـكِ اتجَّهـتُ : خـطـاىَ.. يـداىَ..

وأطيـافُ وهمى الجـريحِ الحـسـيـرْ

وأنشـــودةٌ نـســجـــتْهـــا الظـلالُ

على مـعـبـدٍ فى خـفـايا الضـمـيـرْ

تلفّـتُ حـيثُ اســتـبــدَّتْ خطاكِ

وأطرقْتُ حـيث اسـتـراحَ الأسـيـرْ

وحـــيث أضـــاء بأغـــوار نفْسى

هـوىً عـاصفٌ، صـارخٌ، مـسـتجـيـرْ

تســرَّب حــتى القــرارِ البــعــيــدِ

وأشــفق حــتــى الـرجــاءِ الأخـــيــرْ

ولم يبْق حــــــوْليـــــه إلا شـظايا

تـخلَّفْنَ بعـــد انتـــهـاءِ المســـيــرْ

وكـيف احـتـوائى لصـمْت الليـالى

وليْلُ المحــــبــــين قـــاسٍ ضـــريرْ؟

* * *

إلَيكِ.. وقـــــد كُنْتِ أغلى العطايا

ومــــازلتِ أغْلى الكنوزِ الثــمـــينهْ

وأخلدَ مــــــا وَقَّعَتْ من لحــــون..

بأســمــاعنا : أمــســيــاتُ السكينهْ

إليكِ.. وقـــد كنت عِطر الليـــالى

رحــيــقًا على شــفــتى تسكبــينهْ

ومــــازلْتِ أكـــبـــر من ذكـــرياتى

وأبقـى مـن الـنور إذْ تمنحـــــينـهْ

ومـــازلْتِ أعــمقَ من أغنيـــاتى

وأضْوأَ من خـــاطراتى الحــزينة

ويا مــرفـئى من وراء العــبــاب

لقــد آن أن تســتــريح السـفـينة!

* * *

هنا مـــوضـــعى .. صـــوت أقـــدامـــيــه

هنا خـــفـــقــــةٌ .. فى دمى باقـــيـــة

هنا شـــجْوُ مـــا فـــات من عُمْرنا

وبـــات يُحـــلّقُ فـــى وهـــمـــنـــا

ضـــمـــمْناهُ قـــبل اشـــتـــعـــال السنين

وقـــبـل تشـــتُّتِ أحـــلامنا

حـــملناه ذكـــرى، ورؤيا .. ودنْيـــا

تُفـــجّرُ أعـــمـــاقَ أعـــمـــاقنا

ولم ننْس قـــبل افـــتـــراق العـــبـــيـــر،

وقـــبـل تـفـــرُّق أقـــدامنا

حـكـايـةَ يـومٍ.. وعُمْرٍ .. وفـــــــــجْرٍ
أضــــــاء علـى أفْق مـــــيـــــعـــــادنـا

شهيد الكلمة

لم يكن شيئا غريبا

لا،

ولا كان رسولا فى يديه المعجزةْ

لا، ولا باركت الشمس جبينَهْ

كان إنسانا..

ودودًا كالنسيمْ

دافئا كاللمحة المتَّقدةْ

---

* «إلى روح نسيب المتنى، الصحفى الشهيد ورمز الثورة العربية فى لبنان».

عاريًا كالأَرْزِ... معروقًا كلبنانَ المُدَمَّى

حاملا فى قلبه الغائرِ دنيا موصدة

وذراعا مُجهدةً

وكما تولد فى قلب العراء الأمنيةُ

ثم تنمو...

فإذا الحب جناح

وإذا الإِصرار قلب

والبطولاتُ ذراعٌ...

وكما يولد بعض الناس ميلادًا جديدا

وُلدت قصة ثائر..

حاملا فى شفتيه الكلمةَ!

* * *

يا شهيد الكلمةْ...

أصبحت بعدك ثأرا ولهيبا

أصبحت تسحقُ «نيرون» وتبنى كلَّ «روما»

أصبحت تغسل بالنور الدروب المظلمة

والقلوبَ المعتمة...

ولكىْ تصمد فى الريح الحروف العاريةْ

ولكى تبقى جسورا فى فراغ الهاوية

ولكى تمتد من خلف الدجى كفٌّ مضيئة

تلد الأشواق والأفراح والرؤيا العجيبة

تصبح الأرواح والآجال أدنى تضحية!

ولكى تبصر فى الضوء العيونُ الوانية

ولكى تورقَ فى الأرض العروقُ الذاوية

أوْمضتْ طلقةُ غادرْ

طلقة توقف قلبا

طلقة توقظ شعبا

فإذا لبنان ثائرْ

وإذَا الأرض بشائرْ

وإذا الأحرار ملتفّون حول الكلمة!

* * *

عندما يصبح كلُّ النور أن توقد شمعةْ

فوق أحزان بلادى

وترى الكون عناقا وودادا ومحبة

رغم أثواب الحِدادِ

وتعيش الغد مبهورا كأن العمر رغبةْ

عندما يصبح كلُّ النور أن توقد شمعة

فى ليالينا الطويلة

عندها...

يصبح الهمس... بطولةْ!

(اغسطس ١٩٥٨)

الحصـــاد

أُجهدتا من فرطِ الظلمةْ

عينانا ... فلْنُغفِ الليلةْ

وسلاما ياليل الرعب!

مازالت فى فمنا كلمةً

كانت بهوانا مُبتلَّةْ

يومًا لا يذكرهُ قلبى

وبصدرينا ...

حلمُ الأطفالْ

فى ليلةِ عيد

وبقايا ألوانٍ... صبغتْ

روحَينا... فى ذاك الدربِ

أُجهدتا من فَرطِ الظلمة

عينانا... فلنُغَفِ الليلة

وسلاما... يا ليّل الرعبِ

* * *

«الليلة»..

ما أبعدها... تلك الليلة!

جفَّت حبات العرقِ

نضبت صرخات الدَّم

لكأنَّا لم نقطع عمرا... لم تحفر قدمانا خطوة

لم ترشف شفتانا نهلة

ما أبعدها! ما أبعدها! صارت ليلةً!

سقطت من وجهَينا البسمةُ

غاصت قدمانا فى الوحْل

لم تترك أيام أسانا

ضوءًا يثقبُ هذا الليْل

طارت ساقانا فى الريح

وتكشَّفت الأغوار الضَّحلةُ

وتعرَّى وجه الأشياءِ

ما أضيعَ أن نبنى فى الثلج!

وأمَامى الكلمات الرطبة

ماذا يُجدى....

أن تنفخ نارا فى الموج

ماذا يُجْدى...

مصباح تخنقهُ الكُوَّة!

لا قيْدَ يُكبِّل روحينا

إلاَّ قيْدٌ فى روحينا

قيدٌ يجذبنا للأرضِ

يجمع عينينا... والهَفَا

يجمع عينينا فى الغمض!

ولأنكِ لم تدْرى أبدا

معنى أن تولد أشياءٌ لتموتْ

لم تُزْهر أبدًا... لم تثمرْ

لم تترك أثرا فى اللَّوْحِ

لم تعرف ما سرّ الشكوى

لم تدرك ما طعم البوْحِ

أشياءٌ ماتت

مازالت...

أعمق أخدودٍ فى جرحى

ولأنكِ لم تدْرى أبدا

معنى أن يلتقى اثْنانِ

ويغيبا فى وهج اللمحِ

ستظل مدينتنا مُرَّة

سوداءَ تعشش فى الصبحِ

سنظل نضيع مع الحسرة

لا قيْدَ يكبّلُ روحينا

إلا قيْد فى روحيْنا!

* * *

كانت حبّات النور ترشُّ ليالينا بشرى

تهمى...

تسَّآقط فى قلبيْنا

تنشر آمادًا منغومةْ

ورذاذ الأشواق الحرّى

يحفر فى صدرينا جُرّحا

وخطوّنا فى الظل الوانى

نصنع من شبحيْنا شبحا

كلُّ اللحظات عصرناها

ورشفناها قَدحًا قَدحا

- «قل لى إنك لن تتسانى»

- هل ينسى عصفورٌ وكُره!

- «قل لى أىّ غدٍ موعدنا؟»

- أوَلمْ تلمس كفُّكِ فجره!

- «قل لى كم تهوانى.. قُلْها»

وأضاءت عينينا نظرة...

الأيام ازدادت عُمقًا

سِعةً ... زادت ألوانا...

ونقشنا فى قلب الصخرةْ

اسمينْا .. فانبجست قطرةْ

من وهج الضوء

وانهارت كلُّ الجدران

إلا سدٌّ...

سدٌّ واحد..

يغرس فى قلبينا الظلمة

سد لم تصنعه يدانا

سد فى روحينا

فى روحينا...

* * *

أن يصبح فى فمنا نغم واحد...

أن يخنقنا ومض اللهفة

أن تلفحنا الشمسُ طريدين يجوسان الدنيا

ميلادٌ حلو...

فلنُعْطِ الأيام مداها...

ولتأخذ كلُّ الأشياءِ طلاوةَ ما فى الأشياءْ

ولنحملْ قدرًا يدفعُنا

أن نحيا...

رغم الآلامِ!

أن نمضى...

عبر الأيامِ...

أن نحياها ...

أن نبتهجا ...

(يناير ١٩٥٨)

من فدائى إلى صديقته

لم يترك لى وهَجُ الأيامْ...

إلا شيئيْن

شيئين اثنين

عينيك، وإيمانى بالغدْ

وبأن غداً سيمرُّ.. ومازلنا يجمعنا وعْد

أن نحيا فى أرض النور

أرض الإيمانِ الهادر بالدم

وبعينيكِ أراجيحُ القلق الصَّخَّاب

وضراعاتُ اللاهثِ من هُوَّات الغدْ

لا تأسىَ إن الركب يمرّ

لا تنسىَ.. موعدنا الفجرْ

ولقد أرجع من غير ذراع

أو ساق ديست فى المنحدر الوعرْ

من غير فمٍ يملك بسمةْ

من غير ذراع

أرفعها لتقول وداع

لكنّى يوماً سأعود

ومعى أغلى ما تركته الأيام:

شيئان اثنان..

عيناك.. وإيمانى بالغد

* * *

أنا فى خندقىَ الرطب المقرورْ

ألتمس الدفء

سكن العالم

سكنت أنفاسُ الظلمة

حولى، وانْداحت أصوات الليل المذعور

وتعانقت الآفاق المهجورة

فى حضن الصمت..

سكن العالم..

حتى موجات البحر المنسحبات

تتعانق والشاطىء إلفين غريبين

جمعت بينهما آلام الغربة

وتكاثفت الكثبان المقرورة

وتلاصقت الأشياءُ بحضن الأشياء

وأنا مقرورٌ

الكون مخاضٌ تزخر فيه الرغبة

بحنين لغدٍ آخر..

شوقٍ لحياة ممدودة

وأَنا ورفاقى ننتظر الطلقةْ
حتى نزحفْ..
وذكرْتُكِ حين ذكرت الدفء
يفترش بقاعاً أخرى من هذا العالمْ
يغمر أياما لم يزحمها ظلم الإنسانْ
ماذا لو أطرقْتُ على كفَّيك أرودُ حدود المجهولْ
ماذا لو ضمَّتنى عيناك الدافقتان محبة
وأضاءتنى أنوارُ أمل..
إشراقةُ حب
ترنيمة قلب
ماذا لو غنّينا.. لو غنينا..
حتى نَفْنى فى اللحن المراح
حتى نملأ وَجه العالم بالفرحةْ
حتى نُغرق وجهينا فى وهج الضوء
ماذا .. ماذا ..

مازال كثير..

ماذا لو تركونا نحيا!

لم تنفدْ أُمنية الغائب

أُمنية العانى المقرور

مازالت يا دنيايَ سطور

لا تأسىْ.. لم أُقتلْ بعدْ

سأراكِ غداً.. إن جاء الغدْ

ما أَبعدنا.. يا صبحَ الغدّ!

* * *

وأَتى الطوفان..

يهدرُ من كل الأبْعَادْ..

يا وَيل التاريخ الدامى..

يا وَيل طريق مطلولٍ بدم الأحرارْ

خُضناهُ من الأبد الأوّلْ

يهوى فى يدنا... ينهارْ

وأَتى الطوفان ..

يمنعنا أَن نلقى الغد ..

يهدم عشا من أحلام هوانا البِكْر ..

يحرمنا من طفلٍ .. يلهو .. يعبثُ فى صدرِك

وتناغيه يداك الحانيتان

وتعودان ببسمة ثغر

هل هذا العالم إلا ومضة ثغْر !

* * *

سأراك غدًا

وبقلبى أُغنية لم أُنشدها لك بعْد

أُغنية الجيل الزاحف نحو القمة

أُغنيةٌ من لفح ليالينا الجهمة

إنا والمجْدَ على موعدْ ..

الدرب اتَّضحت للسَّارين

وتكشَّف لون المنحدراتْ

من كل خنادقنا الرطبة

أبدًا نصعد

المارد هزَّ قيودَ الصمت

أطلق عينيه لكل النورْ

لم تبْق سدودٌ تمنعنا عن خوض الموتْ

لن تسَّاقطَ هذى الظلمة إلا بالظلمة

وبكت عيناك ..

عيناك الهائمتان بوعدْ ..

أن تلدا الحلم المشهودْ

ما أحلى أن نوقد شمعة

فى طرف رداء ..

ونخطَّ كُلَيْماتِ الأضواء

ونعطر بالدفء رؤانا

ونناغى أغنية سلام ..

وانسكبت فى قلبى دمعة

ولأن غدا لم يبسم بعد

سأراك غدًا ..

ومعى أغلى ما تركته الأيامْ

شيئان اثنان

عيناكِ.. وإيمانى بالغدْ

(نوفمبر ١٩٥٦)

بغداد تثور

شىءُ يولد كالأسطورة

يولد فى أعماق بلادى

شىء يا عينى المبهورة

يتفجر فى وهج الشمس

أرض صامتة تتكلم

كف بالأفراح تسلم

ويدُ غطاها أَلَقُ الدمْ

ترفع أعلاما منشورة

تحمل للعالم صوت سلام

ممرورٍ بدم الآلام ..

يا صوتا ترفعه بغدادْ

فتعود ليالى الميلادْ

يا صوت الميلاد الأخضرْ

تطلقه بغداد الثورة ..

ما زالت أرض الأسطورة ..

* * *

قدماك المجهدتان تخوضان الحوّمة

وذراعاك تنوءان..

والصدر العارى المجهودْ

وهواجس تُولد فى الظلمة

ورجاءٌ يولد ثمَّ يموتْ

يغرق فى ليل الأحزانّ

لكن الفجر المشهودْ

مازال قريباً.. كالبسمة

فى ثغّر وليدٌ ..

مازال يطوّفُ فى «وهران»

فى جفن شهيد

مازال الفجر المشهود

مازالت ترقبه عيْنان

يخبو.. يخبو.. ثم يعود

قدماك المجهدتان

قدماك تطيران..

وتخطّان

الخصبَ.. وأيام الأعيادْ

فى أرض الفرحِة.. فى بغداد!

* * *

بغداد تثورْ

فترفرف أفراح النورْ

يا قريتنا النائية الخضراءْ

يا أفقا مازالت فيه آثار دماء

يا ألف جناز من أحبابى.. من أَغلى الأحباب

هانوا ..

كانوا يوماً عنقود شبابٌ ..

الأيدى العاريةُ الصلدة ..

والقامات السُمّر المدودة

والألق الوهاج الدامى ..

غابوا .. لكن.. أىّ غياب!

حدَّثْ يا ليل الأحزان

حدّث عن أحلامٍ جفّت فى عينين

وصبايا خلف ثياب العرس

يصنعن مآتم كل الناس ..

يبكين طلوع الشمس.. مغيب الشمس ..

وحكايا كل زمان ..

يا أرض الأحزان المرة ..

ماذا فى تاريخك .. إلا

ليْلُ الإرهاب الكابى ..

ماذا .. غير دم الأحبابِ

يُنبت فوق دروبك ثأره

يا أرضى.. يا أرض الثورة

فلينشقَّ خليج العربِ

ولتخرجْ كل الأصدافِ

مازالت لؤلؤة تُخفى

فى القاع المطمور الخافى!

* * *

شىءٌ يا عينى المبهورة

يتفجرُ فى وهج الشمسِ

شىء يولد كالأسطورة

(أغسطس ١٩٥٨)

يا مغرب

يا مغربٌ ..

عانقنَّا صوتَكَ لما لعله فيه الدمْ

يا مغرب ...

أَبصرّنا رَكّبَك لما صارع حدَّ الوهمّ

يا مغربٌ ..

إنا فى تيارك ننثالُ على الجبهات الشمّ

يا مغرب ..

---

* «إلى أبطال الثورة العربية فى الجزائر»

ثِقْ بالشعب الزاحف نحو القمة ..

ثِقْ بدماء الجثث المندفعات الجهمة

إنا حطَّمنا ماضينا الأسود،

حطمنا الظلمة

سنسير .. سنكبو ..

سنواصل هذا المرْقى

لن نستسلمْ ..!

* * *

الثورة يا وطنى فى كل شعابِكَ،

فى جنباتِك ..

نبعتْ من كل دروبِك ..

من منحنياتك ..

غسلت بالنور ضحاياكَ

وغطتْ لون الأفق الغربى ..

هذا الأفق الكابى المعتم ..

أفق الحرية ..

مازال هناك وراء جبال المغرب

يفهق بالدم ..

مازال يعانق فى «يافا»

أطيافَ الكرْمْ ..

مازال يجرجر من «يافا»

أيام الظلم ..

مازال يُسوِّرُ أرضَ النورْ

بقيود الرعب ..

مازال يلاحق قَرْصَنَة القرن العشرين

وشراذم حراس الحرية!

مازال يداوى بالخنجر

طعنات الخنجر !

مازالت طلقات المدفعْ

فى قبضة حراس الحرية

تَتَصَبُّ.. تلاحق دنيا «ميّ»

وتكوِّرها جنب الكرمة

أنفاسًا هدأت .. وتهاوى

حوَليّها قلب غضٌّ .. حيّ ..

لم يعرف أبدا غير الحب

الوادع خلف مدارج «يافا»

روَّتْهُ عناقيدُ الكرمة ..

نسجته غصونُ الزيتون

غرست فيه أمانَ الأرض

حُبَّ الإنسان ..

لون الفرحة ..

أشياءً غابت عن هذا القرن العشرين

هذا الأفق الكابى المعتم ..

فى المغرب .. فى الأرض الخضراء ..

حشدٌ يلطم صدر الهضبة ..

صدر المنحدرات الوعرةْ ..

قل للقرصان السَّاكر بالدم

ماج الأطلس ..

ماجت موجات البحر الشُّمّ

هجم الإعصار الداوى بالموت

سقطت كل قلاع الظلمةْ

قل للقرصان السَّاكر بالدم

لم نطلق كلَّ قوانا بعد ..

مازال كثيرٌ ..

لم ننضب بعْدُ ..

فلتُقْبل أيام الظلمة ..

فليسودَّ الليل الباقى ..

فليتحول كلَّ العالم

ظلماتٍ راعدةً جهمة

فليسقط كلُّ مغاوير القمة

. وليتدافع كل الموكب ..

سنظل نسير ولا نصعد

سنناضل من أجل الغد

من أجل حياة الأطفالْ ..

لم نتحول يا وطنى أقزاما يخنقنا الرعد

من أجل الكَرْمةِ يا وطنى

يعتصر دواليها غرباء ..

من أجل الجثثِ المنحدرات وراء التلّ

جفَّت .. همدت .. لبّت ..

يا وطنى صرخات الدمِ

فلتتلاحق .. فلتتلاحق .. يا وطنى أيّامُ الظلمْ

ما زال بكل شهيد يهوى فى ساحاتك فمْ ..

مازلنا ..

مازال الإصرارُ العاتى ..

لم ينضبْ دمّ ..

فإذا مروا بقبور الجيل الزاحف،

مروا فى الغد ..

لن تبخل أيديهم يا وطنى

أبدا بعناقيد الورد

لن تبخل باللمسة فوق جدار القبرْ ..

وسيأتون لنا بالسَّعف الأخضرِ فى لون الفجرْ ..

وبأيديهم عبءُ النصر ..

وسينهض ذاك التاريخُ الدامى

ينهض من تحت التُّرْبْ ..

ويمرُّون بهذا القبر .. وهذا القبر ..

ويقولون :

كانوا أحرارا .. لم تقتلهم أبدا أيامُ الرعبْ

كانوا أبطالا..

لم يقفوا أبدا عند حدود الوهم

كانوا آباءً ..

عرفوا أن طريق الإنجاب .. الدم!

* * *

يا وطنى ..

ثق بالشعب الزاحف نحو القمة

ثق بدماء الجثث المندفعات الجهمة

إنا حطَّمنا ماضينا الأسود

حطَّمنا الظلمة ..

سنسير .. سنكبو ..

سنواصل هذا المرقى ..

لن نستسلم ..

(مايو ١٩٥٧)

الخــلاص

«١»

كنا نظنُّ دمعةَ الشتاءِ تمنح العُصاةَ مغفرةْ

وتغسلُ القلوبَ من مرارة التذكارْ

لكننا حين عبرْنا مَفْرقَ الطريق

وارتعدت فرائصُ الخُطَى، وجفّتْ الحلوقْ ..

وراح يشرئبُّ فى أحداقنا النهارْ

لما تهاوت السنون

واختلط المغيب بالشروق..

تساقطت ذنوبنا ..

كأنها على جبيننا مسمَّرة

وغاص فى أحشائنا، فى عُمْق ذكرياتنا

تردُّدُ الأسى.. وشَهوةُ الجنونْ

وليس ثَمَّ واحةٌ.. ولا سكونْ ..

سوى ضجيج المقبرة !

«٢»

كانوا يقولون لنا - فى معرضِ النصيحة المُجرَّبة:

الفجرُ آتٍ، فاغمسوا أقلامكم، وعانقوه

وطهِّروا بالحب لحْظةَ النقاءِ والصفاءْ

وكلُّ ما عَرفْتموه من حقائق الحياة مزِّقوه

ولا تقولوا كان بين دفَّتىْ كتاب ..

فباطلٌ ما تَدَّعونَ.. باطلٌ ما تعرفونْ

وليس غيْرُ ذاتنا المهذبة ..!

غوصوا إلى الأعماقِ خلف حكمةِ الأشياء

وكلّ ذرّةٍ تجولُ فى معابرِ الفضاء
وانسوْا همومَ عصركم..فكلُّها يهونْ
إن قيسَ بالذى مضى!
كانوا يقولون لنا.!
هل قائلٌ لهم بأنَّ فجرَهم قضى !
وآنَ أن يُعانقَ التراب ..
ويْلى.. من الحناجرِ المدرَّبة !

* * *

«٣»

كرهْتُكُم .. كرهْتُكُم ..
يا مَنْ خطاكُمو تشلُّ خُطْوتى ..
ولم تزل أصداؤكم تُميتُ صرختى ..
يا طالما وقفْتُ عند بابكم ..
تلكّأت رُؤاىَ فى رحابكم
وما غنمتُ غير ساقطِ الحديثِ والمتاعْ

وعُدّتُ فى يدىَّ بضعة من الرَّمادْ

ومسبحة ..

وفى جرابىَ العتيق مكحلة ..

وألفُ صوتٍ لم يَعُدْ يُبين ..

يا طالما تمسَّحتْ عيناىَ فى أهدابكم

أقول : زادى أنتمو وأىُّ زادْ !

يالى من السقوط والضَّياع

الويْلُ لى ..

أكلَّما نطقْتُ أو صرختُ .. كان صوتُكم؟

وكان سَمْتُكم!

متى أقولُ ما أريد أن أقول !

ويْلى من الحديث الميِّت العقيم

ويْلى من الوجوه فى قناعها القديم ..

شاهَتْ.. ولا تريدُ أن تحول

فألف نَصْلٍ خَلْفها يجولْ

يا مَنْ تسللتُم إلى دثارىَ المهيب

حشوْتموهُ من فضولكمْ

ومن فُتاتِ ما تعافُهُ العقولْ

ومن تسلُّلِ الرَّمادِ فى الحريقْ

كرهْتُكم.. كرهْتُكم

يا مَنْ حَجَبتُم عن جبينىَ الشروقْ

إنى على مشارفِ الطريقْ

أبدأُ من حيْثُ انتهت خطاكُمو

من صَخْرةِ المضيقْ !

(يوليو ١٩٦٥)

فلتنزل الستار

يوْمًا خرَجْنا
نحملُ الحياةَ فى أكُفِّنا ..
نديةً وجوهُنا بلمْسةِ الأمانْ
نجمعُ من حصى الدروبِ كَهْفنا
ومن معاولِ الشتاءِ قَمْحنا
ونُوصدُ الطريقَ فى مفازةِ الأحزانْ
بالسذاجةِ الخُطى وغفْلةِ الصديق ؟
نسألُ كيف غاب قاطعُ الطريق !

وأخطأتْ صُدُورَنا يدُ الجبانْ

وكيف لم تُشعل أصابعُ الزمانْ

لواعجَ الأحقادِ.. والحريق؟

كيف نجوْنا من تعدُّدِ الوجوهِ والألوانْ

يومًا خرجْنَا ..

شوقُنا الطفلُّ يداعبُ النسيمْ

ويُنبتُ السلامَ فى دُروبِنا ..

وحين عُدْنا ..

لم يكن يهتزُّ فى جِرابنا القديمْ

غيرُ بقيةٍ من الأسى..

وهيكلٍ من الرّجوم ..

وغير بسمةٍ تساقطت

ولم تعدْ على الشفاه ..

نقولُ حين غاب عن عيوننا البريق

واصطدم التيار بالفريق

وضاع شئٌ من قلوبنا وتاه :

أهذه هى الحياة؟

* * *

حين شككْنا .. لم نجدْ ما يسترُ الجبين

تهاوت القلاع والحصونْ

واتّأدتْ خُطَى المشرَّدينَ فى التخوم والقفار

تسأل: هل تفرّق التتار؟

وانداح طوفانُ الظنونِ الموغلاتِ فى السَّديمْ

يَنهشُ فى عُروقنا

ورفَّ طائرٌ على عُيوننا

يُنَقِّرُ البياضَ والسَّوَاد

ويهتك المستور من صحائفِ الميلاد

يا وَيْلَنا

مِن ضجعةٍ على الثَّرى ورنوةٍ إلى النجوم

وليس فى أعناقنا

سوى تصدُّعِ الأسى، وطَوْقُه القديم

يشدّنا..

إلى مواكب الحِدادْ

إلى منابر النِّزالِ والجِلاد

وَحوْمِةِ الظُّنون

حين شكَكْنا.. لم يكن! هل ثَمَّ ما يكون؟

ألم تزَل بقيةٌ رصينةٌ

من ماءِ وجهنا المهين ..

نريقها على الحُطامِ والهشيمْ ..

وحيثُ يقبعُ الظلامُ.. لا نهارْ

فلتنزل الستار!

* * *

ألفاظُكم فضفاضةُ الحروفِ والصفاتْ

كأَنها ثياب ميِّتٍ بلا رُفاتْ

يا ليت ما نقول كان قَدْرَ أُمنياتِنا ..

وصَوّتِنا الذى أُريقَ فى مسيرةِ العَويلِ وَالصيّاح

كنا غَفَرنا دمعةً تخوننُا

أو صبوةً هوجاءَ تعشقُ الفُتات ..

يا ليت ما نقول كان محض ذكريات ...

يلوكُها الليلُ ونُلقيها على مسامع الصباح

ياليت ما نقولُ كان شائهًا وزائفًا

إذن لمات واستراح ..

لكنه نُباح !

(يونيو ١٩٦٥)

مـن سفـر أيـوب

عـــــذبّتَـا : كنّا نـظـنٌّ الأسـى

يمــحــو الأسى الماضى ويُنْسـيهِ

تـراكــــــــمتْ يـا ربّ أرزاؤه

وانْبـــهـــمتْ عنّا مــعـــانيـهِ

كيف التـقـى فى جوْفنا حـاضـرٌ

وغـــــابرٌ ولّى، وآتـيــــــهِ

وكــيـف أصـــبــحنا له ســاحـةً

يعـــبـــرُنا.. لـكنّنـا فـــيـــهِ

يومًا حـــملْناهُ إلى حُفْـــرةٍ
مطمـــورةٍ فى السّفح نُخْفيـــهِ

لكنهُ حـــين انتـــهى رَحْلُنا
تسلّلتْ فـــينا غـــواشـــيهِ

يجـثـو الأسى الماضى على بابنا
تُمـــيتـــه الذكـــرى وتُحــيـــيهِ

ويقـــبعُ الآتى بطوفـــانهِ
عند ظلالِ الشكّ والتّيـــهِ

عـــذّبْتَنا .. أكـــلُّ هــذا الأسى !
أمــا انتـــهينا من ليـــاليــه !

العَيبُ فــــينا ! أم بأقـــدارنا !
أم فى زمــــانٍ لا نُجـــاريهِ !

يداكِ تَثْقُلانِ فى يَدىَّ.. رأسُكِ الصغيرُ يستديرْ
تساؤلاً .. مُفزَّعَ الظنونِ والمصيرْ
تمزّقتْ غشاوةُ الغرام ..

وارتطمتْ أقدامُنا بالمنحنى

يا ويْلنا...

حين التفتّنا بعدَ لأيٍ، نسألُ الدروبْ

عن مكمن الطّعانِ فى جُنُوبنا

كانت رؤُوسنا تؤجُّ بالضرام

وتقذفُ الرَّماد فى القلوب ..

ويلاه حين يسقطُ اللّثام

عن أُفعوانِ الرغبةِ الضرير

ينهارُ وهْمنا اللّجوجُ، يُسرعُ الختام

إلى فُصول زيْفنا

تغوصُ فى حُلوقنا

سنابكُ التذكّر المريرْ..

وخيبةٌ بعُمْق كبريائنا!

لو مَهربٌ من العيون، من تساقط الظلامْ

لو رَجْعةٌ تُعيدنا لطُهْرنا!

تمسحُ عن شبابِنا المقوّسِ السنين

الغائر العينين فى القَتام :

ضراوة الأيام.!

كنّا حملْنا عبئها الثَّقيل طائعيْن

دون أسًى يَعُوقُنا، دون انتظار

للقادمِ الخبىءِ فى الأعوام..

كنّا مددْنا فى شعابها اليديْن

وامتلأتْ صدروُنا بزَهْوة النهارْ

ويلاه من تراكمِ الغبار !

....

يداكِ تثقلانِ فى يدىّ، وهمنا المُضرّجُ الحسيرْ

يدفُعنا .. أقدامُنا تسير ..

تغوصُ فى مناكب الزِّحام

فهل نقولُ: أين؟

لو كان يُسعف الكلامْ !

(سبتمبر ١٩٦٥)

العيون المحترقة

العــرى

من أجلكِ، أنفُضُ هذى الكلمات، وأتعرَّى
أخلعُ عن نفسى أقنعةَ الكذبِ العاهرْ
سقَطَتْ تحتَ الأقدام المُلتفَّةِ والملتحمة
لمَّا التصقت رُوحانا، جَسدانا،
أغمضْنَا أعيننا الحَيْرى
غِبْنا فى وهج اللحظاتِ المحتدمة
ساعتَها، أشرَقَ فينا ومْضُ الصدْقِ الباهر
كاللّمحةِ، أشرقَ، ثمَّ خَبَا

وتدافعتِ الأشواق الحرَّى

* * *

عيناكِ تقولانِ: تقدَّم

لكنَّ يديكِ تصلبتا سدًّا يفصلُنا ويعذِّبنا

عيْناكِ تقولانِ: تنعَّمْ

لكنَّك تَتْفلتين وتَتسجين وتمْتنعين

دلالاً، وهُروبًا مفضوحا

أم تلك بَقَايا مازالت تُثقلُ قَاعَ النَّفْس

خلَّفَها الزمنُ العاتى دَمْعًا لم يَتحدَّرْ بَعْد

حتَّى لكأنَّا فى مأتم

أسمعُ فيكِ عُواءَ الدم

لكنَّكِ تصطنعينَ وقارَ الحكْمةِ والعَقْلِ الممتل

يهذى بالألفاظِ الكاذِبة، الباردِة، الجَوفاء

تتعاركُ أو تتناغمُ، ما عاد يهمّ!

فالكلُّ سواء!

ها أنتِ معى، تُقْعينَ على بُركانِ الرَّغبة

لاتخشين سوى أن ينكسر الحاجزُ، تتهاوى الأسوارُ،

تصيرى امرأةً مسعورة

تتفجَّرَ رغبتُك الحبلى بعذاباتِ العُمّرِ المزموم الشفتين

وتفيضَ ينابيعُ البهجةِ فى دنياكِ المقرورة

ها أنتِ معى ، أتسمع صوتَ العطشِ الساخن،

صوتَ هواجسكِ المذعورة

جذبَ القيعانِ العاريةِ الظمأى

فمتى تنطقُ شفتاكِ: تقدَّمْ

أنزعُ عنكِ قميصَ الخوف

وأمزقُ وجهَ الأوهامِ المبتورة

فالعرىُ الكاملُ مولدنا ، وحقيقتنا ، وتلاقينا

ولتسقط أقنعةُ الزيف!

* * *

لو أنى عشتُ العمرَ على بابكِ

ما خمدَ الشوقُ، ولا انطفأتْ نارُ الغربة

ولظلتْ سفنى المبحرةُ إليكِ تنوءُ بأثقالِ الترحال

جوعًا تتضورُ أو ظمأ

يا من يسقينى من خمرك

يقذفُ بى فى منهلكِ الساجى المتدفق

أرشفُ، أرشفُ، حتى أسّاقطَ إعياءً أو تخمة

وأعودُ فتحملنى الأشواقُ ويثقلنى عبءُ الرغبه

من أجلكِ، أقتحم الليل ، وأعبرُ ساحاتِ الحمقى

المنتظرين بأعتابك

وأخوض وجوهَ المبهورين، الممتثلينَ لأهدابك

يرجون الإذنَ، لعلَّ حديثًا منكِ، لعلَّ إشارة

أو حتى ظلا من بسمة!

من أجلكِ أصبح هذا الفاتكَ فى ليلِ الأسطورة

هذا الوجهَ اللامعَ فى قلبِ الصورة

هذا العارىَ، فى هذى الصفحاتِ المنشورة

الغربة

أوشك أن أسقط فى تيه الكلمات

فى قاع الحزن الغائر فى فلوات النفس

يجرفنى هذا السيل الطاغى من فضلات العصر

ينزعنى من أرضى..

يلقينى فى وجه العمر

ظلاً مرتجفا، مخذولاً، مقرور الهمس

يغرسُ سكينًا فى قلبى

يدمينى، يحرق سمتى، يغرق وجهى باللعنات

أوشك أن أسقط حيث يضيع الناس وحيث يموت الناس

حيث تغيب الأصوات وينداح ضجيج الموت،

وتختنق الأنفاس

فى صمت القبر

وأنا أتلهى بالموتى

مازلت أكفنهم..

أتلهى بالصلوات

عبثًا أرفع رأسى من قاع البئر

بحثًا عن وهج الكلمات..

تخنقها أيدى الحراسْ!

* * *

أوشك أن أتعرى من زيف الحسّ ومن وهمِ المقدور

من لعنة هذا الزمن الكابى خلف وجوه الناس

أوشكُ أن أتفرَّسَ فيكم يامنْ أنتم حولى

وأراكم فى وهج الضوء الساطع، فى وضح الظلمة

أحجاما لاتخطئها العين

أصواتًا شوهاء النقمة

أقــزامًا، مـخــذولين ومنهــوكـيـن ومطحــونين وراء الليل المرور

أوشكُ أن أنفضَ هذا الثوب المثقوبَ البالى

خرّقناهُ جميعا ولبسناهُ

وظنناهُ..

يسترُ سوءتنا، ويدارى الوجهَ المذعور

أوشك أن أجبهكم بالحكم القاطع

أنتم يا جبناءَ الحرفِ ويالعبةَ هذى الأيام

يا أبناءَ الصمتِ، ويا أحفادَ التيه

يا فرسانَ الليل ويا جرذانَ النور

أوشك أن أطعنكم بالسيف المبتور!

* * *

كلماتى..

يا صحراءً قاحلة الجدب، عقيما

يا قدرًا أحمل حديه المفلولين،

جريئا أو رعديدا..

وحدى أرقب هذى الأفلاك الأرضية

وأتابع دورتها المنهومة

- فليسقط قائلُ هذا البيت

- وليحيا منشدُ هذا الحفل

وليتشدق هذا الأجوف ما دام يجيد السير على الحبل

ويرصُّ الألفاظ المنغومة

- وليحيا سيرك الكلمات!

* * *

وحدى أتلفت بينكمو، يا منْ أنتم حولى

أزعمُ أنى أبدأُ أول حرف فى سفر التكوين

وأرى الأشياء بعينٍ تجهلُ معنى الذلّ

وأذوقُ الكونَ بوجد العاشق يلثمُ وجهَ المعشوق

وأنادى من فوق الجبلِ الأجرد فى الصحراء

أدعوكم يا أصحابُ ويا أحبابُ ويا فقراء:

مَنْ يثقبُ ظلمةَ هذا الليل؟

الرحيـــل

مُنخلعًا عن كونكم أطير

عن وجه هذا العالم الموغل فى الغرابة

لو كنت شاعرا فى غير هذا العصر والأوان

لاتأدت فوقى عمامة أو قبعة

سيان!

ولانتظمت فى مسيرة الذكاء والنجابة

وجهًا يزيد رونق الإيوان

ويدخل الحبور والسرور

على صدور النخبة الأعوان فى معية السلطان

ولاعتدلت فى مسيرتى مفاخرًا بأننى التبيع

والخدنُ والشفيع..

والفارس المنيع فى الأقران

إن كان ثمَّ للنزال حومةٌ أو غابة!

لكننى وا أسفاه، فى زمانكم أتيت..

طاشت سهامى،

ما هتكتُ إذْ رميت..

كبا جوادى،

ما سبقتُ إذ عدوْت..

نبا بيانى،

ما أصبت إذ نطقت

ولست فيكم أشجع الشجعان

لأحمل البيرق أو أخوض فى عجاجة الميدان

فإن سقطتُ أو نبوت أو كبوت

فحظٌّ مثلى من أسى العيون.. دمعتان!

* * *

قبعتُ حيث لانزال أو طعان

مرددا هتاف عاشق صريع

منمقًا حكايتى

بألف لون من فرائد البديع

مرتديًا إهاب فارس قديم

ووجه شاعر منيع..

كىّ لايقال عاشق جبان

لم يحسن التشبيه والإشارة

ولااصطياد خاطر منمق العبارة

يجود بالدمِ المراق فى صحائف الأوراق

متمتمًا تعويذة الغرام والهيام فى هوى ليلاه

مبللا بالدمع وجهها الوديع..

ـ مولاى إنى عاشق مطيع..

وتمّحى حكاية الأشواق..

* * *

اشتقت يا صحاب أن أكون واحدا

من الذين يملكون حظًّ يومهم من المرح

وحظًّ ليلهم من الشطارة!

العابرين كلَّ ساحة ومعترك

الناهشين كلَّ حرمةٍ وعرض

المالئين العين فى جسارة..

من كل زَهوةٍ تصبها الحياةُ

فى عروق الطيبين الوادعين

الفاهمين دورة الزمان والفلك

لطول ما تجشموا المهارة..

وأتقنوا التصريح والتلميح والإشارة!

* * *

ردوا علىَّ ثوبىَ المهترئَ القديم

ردوا علىَّ بعض وجهىَ القديم

وحظىَ المرتعش السقيم

وحزنىَ العقيم..

فليس لى فى أرضكم سقيفةٌ أو بيت

لكننى، وا أسفاه، فى زمانكم أتيت!

سقطتُ فى براثن الكآبة

والزمنِ الموغل فى الغرابة!

* * *

منخلعًا عن كونكم أطير

عن ربقة الأغلال فى تتابع الأسماء والوجوه والفصول

ودورة الأشياء حين تأسن الأشياء

أبحث عن مدينة أخرى وعن سماء

نقيةٍ، بلا فضول..

فلا تقولوا : طائش غرير

أسرجت خيلى واتجهت للعراء

هلمَّ يا رحيل!

سقوط الوهم

هل آن سقوطك يا ظلّ الوهم الشائه
تتمدد خلف عيون الليل المنطفئة
تقعى خلف الأبواب، وملء رؤانا المهترئة
وتظلُّ على الأنفاس ثقيلَ الوطأة والسيماء
كاللعنة.. أبدًا لاترحل..
كالقدرِ الجاثم.. كالمنجل..
تحصد أزهار أمانينا
- مازالت سرا لم تتفتح عنه الأكمام -

تجرف طعم الأمن الوادع فى أبعد أغوار النفس

حتى ألقاك..

محنىً القامة والإحساس..

مخنوق النبرة والأنفاس

مسحوقًا، أمضى، أخفينى، أتضاءلَ، أتلفت حولى

خشية أن ينسحق جميعُ الناس !

هل آن سقوطك يا جبل الوهمِ الشائه

تحجب عنّا لمحَ النورِ وأفق الرؤيا..

فنظلُّ ندور..

ونظلُّ ندور..

يقذفنا الديجورُ إلى الديجور..

فى تيه الأصوات الصدئة!

* * *

أسأل: ـ يا مذلة السؤال ـ:

هل آن أن نعود للبراءة؟

لفطرة الإنسان حين يملك الإنسان

بِقبضٌ كفيه الضئيلتين زهوة الحياة

هل آن أن نعود للجراءة؟

لفطرة الإنسان حين يؤمن الإنسان

بقدرة الغريق أن يلاطم الموج وأن يجاوز الردى

بحثا عن النجاة..

هل آن أن نعود للقراءة؟

لفطرة الإنسان حين يعرف الإنسان

حقيقة الذى مضى..

وجوهر الخبىء فى بقية الزمان..

أسأل: ـ من يجيبنى إذا سألت؟

وكلكم يعاقر الملال والهوان ـ

هل تعرفون قيمة الإنسان؟

كرامة الإنسان!

حرية الانسان!

ويجىء شتاء

فى قلب الليل العارى ينفجر شتاء

معتلّ الخطوة، ممرورا ..

يأتينا اليوم على استحياء

أطول من كل عذابات العمر المحزون

أثقل من عبء التذكار ومن قاع الذكرى الشوهاء

أفدح مما ضاع، ومما فات،

وظل حبيسا فى الأحشاء

ويجىء شتاء

يتلاصق وهمانا

تتعانق روحانا

تتجمع فى أوتار الأعماق دماء

يتماوج فينا نبض الشوق.. وتتداخل فينا الأصداء

يتزاحمُ فينا وهج الدفءِ

وتنطق فى شفتينا الأشياء

تبحث عن مأوى.. وغطاء

* * *

ويجىء شتاء

تدفئنى الكلمات الحرى

الكلمات الراعشة الأهداب، المثقلة القلب بلفح الأشواق

الكلمات العارية من الزيف،

المترعة بصدق الأعماق

تدفئنى الكلمات الحرى..

تنقر صدرى بدبيب الأمل المشرق فى نبضات العمر

تنطق صمتى،

برنين الصوت الراعش فى خفقات الحرف..

كلماتكِ أنت..

بيضاء بلون الصدق الباقى

فى الأصواتِ وفى النظرات وفى الأشياء

كلماتك أنت..

خضراء بلون الحب المزهر فى الصحراء

فى قلب الصحراء الجرداء..

كلماتك تاريخى وخطاىَ

ولون القادم من أيامى

هذا الفجر الأبيض يشرقِ فى صفحة أوهامى

ويجىء شتاء...

نتحسس ماذا تركت فينا الأيام؟

اللون الباقى فى الأحداق وفى الأعماق..

والعمر الذائب فى التذكارِ وفى الأشواق

يتحدى الموت!

كلماتك أنت..

أغلى من كلّ الصفحات ومن كل الأوراق

* * *

مرثية شاعرة عاشقة

أكان رساما !

يصبغ بالألوان وجه اللحظة الحزينة

وينتقى من مفرداتها حروف ريشته

من قبل أن ينغمس السواد فى البياض والبياض فى السواد

ليصبحا شكلا وأحجاما..

لكنه فى آخر المطاف آثر الرحيل

منقبًا بين عيون الصبية المحتشدين فى النهار

الصبية الصغار حين يجلسون فى انتظار

نبوءة ألقى بها العراف

عن صبية فى الغد يولدون

لابدّ أن سيولدون..

لم يولدوا فى الليل أيتاما

يحكون عنه حين آثر الطواف

ملتفعًا عباءة الحزن الجّليل

محطمًا ألوانه ومرسمه..

فلم يعدْ يكفيه ما فى الأرض من ألوان

لطمس ما فى الأرض من أحزان

وستر بقعةٍ من السواد

ترقدُ فيها طينة الإنسان..

«٢»

أكان عازفا

ينهنه الليلَ على صدى قيثارته

ويقطع الأنفاس والأوتار من فجاءة النغم

ويسكب الأسى الشفيف فى محاجر العيون

ما أعذب الألم!

ما أعذب الألم!

تطهرى يا عين بالدموع

وانسحقى يا أرض بالندم

أكان عازفا!

وكنت أنتِ جرحه العميق، جرحه الأصم

وحينما تمزقت يداه فى ضراوة اللحن الأخير

وارتطمت عيناه بالظلم..

وليس بعد من صباح

رمى إلى الفضاء قيثارته..

وقيل مزق الأوتار.. فاستراح!

«٣»

أكان عاشقا..

ليس سواك من يقول عنه: كان..
يعطيه شكله ولونه وحجمهُ..
حديثه، وصوته، وطعمهُ..
وعمقَ مقليته حين تنظران للأشياء
تستطلعان سرها الخبىء فى ضبابة المساء
ليس سواك من يقول: ما الذى أحسّ فيك
ما الذى رأى..
وكيف كان ملهما..
وكيف كنت ملهمة..
وحين شفه الحنين كيف جاش وارتمى.
منقبًا عن جذوة دفينة، وعن دثار
وكيف فى برودة الشتاء أشعل الأصابعا
وغاص فى يديك واحتمى..
وارتعشت فى كفه شرارة لم تنطفىء
تناثرت أشلاؤها على جدائل الأوراق!
وحيًا وإلهاما!

«٤»

أعود للأوراق، من يسائلَ الأوراق!

ينتزع السرّ الدفين من براثن الأشواق

وليس غير شعركِ الصموت ، شعركِ الحزين

ولوحةٍ يتيمة علىَ الجدار..

كأنها السطر الأخير فى رواية الحياة..

من يكشف الحكاية الحزينة الختام

حكاية العيون حين تستدير للسلام

نديةً بفرحة الظلال والألوان

كسيرة بخيبة الرجاء وانطفاءةِ الأمان

.. ..

أقلب الحقيبة التى عذبها السفر

منقبًا عن ومضة تفصح أو تشير

لاظلّ..

لا طريق..

لا أثر..

الدرب غام.. وانتهت حصيلة الرفاق

وارتحل القمر!

«٥»

يا وجهها الطفلىَّ فى خزائن الكهولة..

يدفق بالجلال والحنان..

يا جسمها الفارعَ فى مهابة الشموخ

يا منجما بكر الكنوز.. لم يطف به إنسان

أشهد لم تمسسه مرة يدان

ولاتحسست طريقها إليه مقلتان..

جريئتان تبحثان فى دثاره المهيب عن خميلة وعن بستان

كأن موسيقى المساء خطوها

ورنة الفرح العميق صوتها

وحكمة الحياة همسها الوثير فى مسامع الليل الأخير

من يُسكت اللظى الملح فى الجوانح الدفينة

من يطفىء الحريق فى محاجر العيون

يئزُّ كالهشيم من حصاد عمرها الحبيس فى السنين

من يرضع الأمومة الظمأى إلى الأمومة!

تذوب من لهفتها تذوب!

من يلمس الجراح والندوب

طال بها الأوان..

تئزُّ تحت وطأة الحرمان..

من يمسك البركان، حين ينضح البركان

بكل فورة العصور..

بكل ما فى القاع من غرامها الكسير

ووهمها المضرج الحسير

الطفلة العجوز، تغمض العينين فى سكون

وتمَّحى الحياة فى سكينة الرضا..

فليس للزمان من رجوع..

وتجهش الأعماق بالدموع..

«٦»

مشدودةٌ إليك خطوتى على الطريق

مشدودةٌ عيناى نحو شرفتك

اللّه يالبلابةً تُظلُّ مشهد اللقاء والفراق

وتستر المارين فى لواعج العناق

اللّه يا ساعات ليلنا الوثير

ما كان أصفاها، وكان أسرعا

وموكب الغروب يولج النهار فى الظلام

فيستدير فى شفاهنا الكلام

أغنية، حكاية، مرنحة

سخية الظلال والأشواق

«فى الليل تلبس النساء وجه اللحظة السجينة

وتطلق الأسرار كالعطور من أغوارها الدفينة

ويتمطى فى العروق أفعوان الرغبة الضرير

فى الليل تصبح العيون ملمسًا ومعبرا

تثّاقل الخطى، تكاد تجهل المسير

يلتحم الواقع بالخيال، والجنون بالشعور

وتكتسى جلودنا بزهوة الحياة..

تترجم الأيدى حديثنا الصموت

ويتسلل الكلام من نوافذ الأصابع المرتجفة

فى الليل .. كلٌّ صدقنا العظيم.. زورا»

«٧»

أحلم بالجزائر البعيدة...

بسنديانة ملتفة الجذوع تحجب المدى..

منقوشة على ضلوعها حروف عاشقين

بشاطىء لمّا تزل على رماله آثار عابرينْ

تعاهدا .. واتحدا..

وأصبحا حرفين فى قصيدة..

أحلم بالرمال، بالصحراء ، بالعوالم الخصيبة

أحلم بالمدائن الشرقية المهيبة

بلوثة السحر الخرافىّ، وبارتعاشة الجنون،

يُفضى إلى العوالم العجيبة

أحلم أن أكون طائرًا، كالنورس المهاجر

منقّرًا فى لجة البحار وجه موجة عنيدة

أحلم أن أُطل فى خزائن الذين هاجروا ونقبوا

وأن أعيش فى طفولة الذين عانقوا الشموس والبحار

واحترقت وجوههم بزهوة النهار،

لكى يصيدوا فرحة جديدة!

أحلم أن أكون فى صباك، فى زمانك السعيد

فى زمرة الذين طوفوا حيال سدتك

يلتمسون الإذن بالمثول

لديك يا مليكة النساء..

وأنت تأمرين، تعتبين ، تصفحين

وتمنحين ودك الثمين منْ تشاء حكمتك

وتغفرين للصغار أن تجرأوا..

أحلم أن أكون فى زمانك الذى مضى،

ووهمك الذى قضى..

أحلم بالجزائر البعيدة!

الزيـــارة

الصوتُ صوتها .. جدارُ بيتنا القديم..

رنين فرحنا الدفين فى الضلوع..

ومعطفُ الحنان للذين يغمسون فى السديمْ

ذؤابة الخريف والربيع

ولوعة الخبىء فى الأيام..

* * *

الصوتُ صوتها ..

ورف طائرٌ على قلوبنا ..

وغامت العيون بالسلام..

واهتز شوق عاصف طويل..

يذيبنا كقطرة الشموع..

يا أيها القادم من ديارنا..

كأنما تجىء بعد ألف عام..

لاصمتَ فى عيوننا.. ولادموعٌ..

فلتسترح على جفوننا

يا وجه طيفها النبيل

يا صوت حزننا الجليل

لم يبق غير أن تزورنا

يا ضوءنا اليتيمَ فى القتام

يا أنت.. يا مصيرنا..

* * *

نعبرُ ما نعبر من مضايق السنين

لعلنا نراك فى البعيد قادمًا لنا..

نبحر ما نبحر فى مرافىءِ العيون

نسأل: هل تركت كلمتين فى طريقنا هنا

نحلمُ أنّ ساعديك طوقا وعانقا اشتياقنا

وهدهدا انتظارنا الطويل واغترابنا

ومسّحا هنيهةً على الجبين

يا أيها القادم فى سحابة الحنين

تسحّ فى عيوننا على المدى تذكار

تفيض فى أعماقنا براءة انتظار

وتصبغ القادم من أيامنا اخضرار

يا أنت.. يا عزاءنا..

* * *

يا ويحنا...

حين التفتنا نرفع الرؤوس كالغريق

محدقين فى البعيد..

دون أسىً يلفنا.. دون انتظار

كانت مواكب الحياة تغمر الطريق..

وتكتسى الوجوه زهوةَ النهار..

وكل شىء هادر.. كأنه جديد..

يا ويلنا.. كأن شيئًا لم يكن..!

وكيف ينسى رهبةَ المصير

أولئك الذين شارفوا مخاضة التراب

وانهمكت عيونهم فى دمعة العزاء

مشيعين وجهكِ النبيل.. كالشهاب

أضاء برهة وغاب

وقبل أن يُغيّب الثرى

كانت رؤوسهم هناك تستدير

تبحث عن وسيلة إلى الحياة

كأنما الشهوة والميلاد والجنون

سبيلنا إلى النجاة!

* * *

يا ويلنا ..

الشمس تثقب الجدار من جديد

وصيحةُ الأجراس مثلما يهلّ عيد ..

وحول لقمة الصباح يركض الصغارِ..

وألف عرس رفّ واستدار

وأزهرتْ دروبنا للموسم الوليد

وارتاحت العيون فى سنابك الرضا ..

يا ويلنا ..

كأن شيئا لم يكن..

أليس غيرنا هو الذى قضى!

تنويعات على لحن أساسى

١

وجه مدينتنا :

أعرف أن خطاى تسابقنى فى الدرب إليك

أعرف أن يدىَّ تشيرانِ،

وأن هواىَ الكامن يتواثب فى عينىّ وفى شفتىّ

بحثًا عن لحظة ضوءٍ منشودة

أعرف أنك فى خاتمة الساعات ملاذ المتعب والمكدود

من زحمةِ هذى الأيام،

وقسوةِ زيف الأوهامِ،

ولغو الزمن الكاذب

أعرفُ أنك أنتِ أمان المغترب المهدود

يأوى فى جوف الليل إليك

يرتاح إلى صفحة عينيك

يُسلم للصدر الحانى رأسا مجهد

أعرفُ، لكن لا أعرف عنك

إلا ما يمنحنا وجه مدينتنا الأسيان

حينِ يثير بعمقينا قلق الرغبة

ويفجر فى وهمينا خوف المجهول

فيئز بصدرينا شوك الحرمان

يفجؤنا وجه مدينتنا..

فيحيل ليالينا ندما

يقهرنا وجه مدينتنا

فيحيل أمانينا سأما

يصهرنا وجه مدينتنا

فتذوب سحابات الأشواق

مطرًا منهمرًا فى الأعماق

يطويه بئر الأحزان

يا من يُرجع وجه مدينتنا النديان

يخضلُّ بأيدينا فرحا

ويجىء، فتهتزّ الأوراق، وتسّاقط ثمرات الحب

ويغرد طير فى القلب

فالدنيا.. لا أبهى .. لا أحلى

والعمر غناء، وأناشيد

صف شعورك

تقولين لى: صف شعورك

إذا ما جلسنا بنفس المكان، وأطبقت المقلتانِ

على لحظة عبرتنا وراء الزمان البعيد

وكنا ظننا بأن الذى فات، فات

وأن الهوى ذكريات

وأن الصغير الذى قد رعيناه مات

وأنا اصطدمنا

ففى قدرينا معا غربة وافتراق،

ووحشةُ ليلٍ بغير ارتواء

وكنا ظننا..

بأن الذى كان ..

وهمٌ سريع الفجاءة والانطفاء

وأنا سنصحو بذات صباحٍ..

فنلقى الذى فى يدينا هباء

تقولين لى: صف شعورك

من بعد عام تولى، وعام

وقبلهما، ألف عام، وعام

أقول: تغير وجه الزمان، تغير وجه المكانِ

تغير كل الذى فى يدينا

وحين التقينا.. استكان لدينا الأمان

تقولين لى: صف شعورك، قولى

إذا كان يحتاج بعد إلى ترجمان!

أسائلكم:

فى طريقى إليك..

أراقب كل الوجوه، أواجه كل العيون،

أسارع مدَّ الخطى

لعلىِّ أراكَ وضيئًا، مطلاًّ

تُلوِّحُ بين الزحام، تشير إلىَّ وتدنو

فتدفعنى رغبة لاتحدُّ

لأجتاز نحوك كل المسافات

أطوى الطريق إليك، وأعدو

وما زلتَ بين الزحام تلوّح،

بين مئات العيون تطلُّ

ربيعًا، ندىً الحياةِ، وظلاًّ

وأهتف من كل قلبى: حبيبى

فتهتف عيناك بالحب: أهلا

وينثال صوتك، يملأ نفسى

رخيمًا ، طليق الترانيم، جذلا

.. ..

أسائلكم .. كلكم.. هل لديكم

نهار كوجه حبيبى

صفاء كعين حبيبى

نقاء كقلب حبيبى

أمان كعش حبيبى

أسائلكم.. لو تردون قولا!

هدية الأيام

العام، بعد العام، بعد العام

يكبر فى عيوننا شعاع طلعتك

يمتد فى عروقنا نداؤك السخىّ بالوعود

يوقظنا، يشعلنا رغائبَ انتظار

تفيض أيام اللقاء واحةً ندية الوئام

وأنتَ، مثلما أبحرتَ فى ضميرنا

سارٍ، لغير شاطئٍ وغاية

مسافر على جناح حبنا المديد

تصنع من نجومه حكاية مُنَمْنمة

عميقةً، بلا نهاية

متكىء على مرافىء التذكر البعيد

تطلّ ما تطل فى عباءة السنين

نجوس فى المخزون من ذخيرة الأحلام

العام، بعد العام، بعد العام

وأنت كنزنا الفريدُ

ضوؤنا اليتيم فى قتامة الأيام!

* * *

يفجؤنى حديثك الذى نفضت فيه جرحنا

أبحتَ فيه شجونا، وبوحنا

وحزننا البعيد، حينما لم تسعف الأيام

فاصطدمت جباهنا أمام حائطين من سراب

كانا..

وما كانا سوى فى وهمنا

حين صحونا، امّحى الجدار

وارتبكت فرائص الظلام..

يفجؤنى الهمس الحيىُّ، عاصفًا، ولافحا

ألم يزلزلنا معا

ألم يرنحنا معا

ألم يباركنا معًا، على بساط حلمنا الوثير

محلقين، طائرين فى السحاب

نجوب فى عوالم الرؤى، مدائن النقاء والصفاء

تحملنا سحابتان، موجتان من ضياء

ونستريح حين نستريح فى عرائش السماء

يفجؤنى أنى معك

وأن بالإمكان أن أراك هكذا، وأسمعك

وأن مرتجًّ الخلايا بيننا

يهتز كلما لمست موضعك

يفجؤنى، أن الظلال فى مدينتى تجف، والغصون

تنوء بالهشيم، والثمار

يابسة قبل الأوان، والعيون

كأنها مداخن الحريق، لادخان

لكنه انتظار

يفجؤنى نجم بعيد اللمح فى سمائنا يشير

لم تكتمل خطاه فى بروج الاستدارة

ولاتفجرت عيناه بعد بالضياء

لكنه، فى أفقنا يشير

أهتف قبل العصر، والأوان

مناديًا كلَّ صباح يا حبيبى أطلعك

وكلَّ فجر عاشق إلى حمانا أرجعك!

* * *

العام، بعد العام، بعد العام

ولم تزل تشدنا سواعد الأيام

نجتاز أرض الصبر والأشواق والكآبة

ونعبر العيون، والحتوف، والرتابة

ونلطم الوجه الذى لوّنه الحقد الدفين

فأفرخت سمومه على جدار الخد بؤرة القتامة

القبحُ فى وجوه الحاقدين بعض ما

يخفونه فى الصدر من دمامة

والحب فى عيون العاشقين فتنة الوسامة

كأنه علامة

على القلوب المترعات بالأمان والسلام

ورجفة الحنين حين تبدأ العيون فى الكلام

وتلتقى الأكف فى غلالة الرضا

العام، بعد العام، بعد العام

وأنت لى على المدى

هديةُ الأيام!

العيـون المحترقة

فى وهج الشوق اللافح ماذا تملِك عينايا

فى صمت اللحظات المخنوقة فى الإطراق

أرنو..

لاتملك كفايا..

أن تلمس هذا الوجه الذائب فى الأشواق

أغفو..

توشك أن تمتدّ يدايا..

يوشك أن ينفجر الصمت ، وأن تصطخب الأعماق

يوقفنى شىء ساجٍ فى عينيك

يكفى أنى بين يديك..

أكتم صوتى.. صوت هوايا..

ماذا يبقى من هذى اللحظات المختنقة..

إلا وهجٌ.. دامٍ

يبقى فى عينى المحترقة!

* * *

الشوقُ بحارٌ ومدائن

الشوق عيون مسحورة

أطيافٌ تولد كل مساء

وترفُّ بقايا أسطورة

شطآنَ بلاد معمورة

الشوقُ قلاع وسفائن

تمخر هذا البحر المائج فى قلبى

يحملنى..

ما دامت عيناكِ جناحيَّ المزهوين

ينقلني..

للوعد الصامت في شفتين..

يبعدني..

لا أدري كيف وفيم وأين!

الشوق طريق مسعورة..

تقتات دماي وأعصابي..

تشعلني.. تشعل أهدابي

تسلمني أبدًا .. للحظات المختنقة..

وهجا..

في عيني المحترقة!

* * *

أملك أن أختار، ولكن ماذا أختار!

الشوق الرابض في العينين وفي الشفتين

والعمر الذائب خلف الوهم كطرفة عين

وسواك، أأملك أن أختار سواك؟

يا وجه ربيعى المفعم بالنوار

أملك أن أختار ولكن ماذا أختار!

ما دامت ملء خطاىَ تئزُّ النار

وحدك لى وجه الأقدار

من يملك أن يدفع هذا القدر الموغل فى إنسان

هذا الإيقاع الغامر كالطوفان

هذا العبء بلون الأشواق أو الأحزان

حلوًا، ممرورًا، سيان!

أملك أن أختار، ولكن ماذا أختار!

صمت اللحظات المختنقة

أبدًا، يا عينى المحترقة!

أرجع كلّ صباح..

كلّ مساء..

لا أعرف إلا أنك لى..

هذا الوجه المأنوس الباقى

من أحزانى

من نيرانى

من كلّ رمادى.. ودخانى

أرجع لا أذكر مما فات، ولا مماسيجىء

إلا أنك وحدك .. لى

قبسٌ فى عينىَّ يضىءْ

عطرٌ فى شفتيه أفىءْ

وهجٌ يسعفنى،

يشعلنى،

ملء اللحظات المختنقة

يا نور العالم فى قلبى،

فى قاع عيونى المحترقة!

كان حياتى

كان اسمك، يدعونى أطوى الأسماء وأطوى الأيام

فليس سواهُ

شيئًا كالألم المسحور، كوقع الحلم الهاتفِ،

أستشعره فىَّ.. وأخشاهُ

كان اسمك ينقرُ صدرى

تلمس أعماقى الخضراء يداه

تربت كفاه على دنياى

وتغفو فى عينىّ رؤاهُ

كان اسمك يغرينى أن أعبر هذا الموج

وأن أتحداهُ..

حسبى من رحلة أيامى..

قبسٌ فى وجهك ألقاهُ

هل يكفى الآن بأيدينا..

أن تبقى منه ذكراهُ!

* * *

كنت أقول لأيامى ولأشواقى ولأحزانى

يا قلبى..

هذا نبع البشرى، نبع الأيام المنضورة

يا نفسى..

هذا زمن الحلم الرائع، يسبق خطو النور لعينىّ

آه يا عينى المبهورة..

موكبها.. مازالت فى القلب خطاه المتئدات

موعدها.. ألف حكاية شوق، ألف صلاةٍ

ألف سحابة خصب منشورة

رفت كالخاطر، والتفت كاللمحة لهفى، مذعورة

وانسكبت من فيض هوانا، نسمات العطر المنثورة

والتفَّ الصمتُ يغطينا..

بظلالٍ واجفة..حيرى

أأقول وأسبق أيامى

أم تبقى لوعتنا سرّا!

فى القاع الموغل فى نفسى

يدها مازالت محفورة

تمتدُّ فتمسحُ أحزانى

وتغيب، فتنطمس الصورة

آه، ياعينى المبهورة!

أصحو..

فجميع العالم فى عينىّ، نداء منك، ندىّ الهمس،

عميق بالأشواق

أغفو..

فالدنيا لا أبهى : عرس وصلاة.. وعناق

أرنو للقادم من عمرينا

للشوق الذائب فى قلبينا

وأقول وداعا يا أيامى المرورة

نبتت فى دربينا زهرة حب مسحورة

طالت.. عانقت الضوء جناح سلام ومحبة

العطر الساكن عمقينا

زادٌ فى رحلة عمرينا

أصحو

أغفو

ماذا يبقى..!

هذا الصوت الهامس أبدًا فى أعماقى

أجراس سلام وحنان، ذابت فى لهفة أشواقى..

وبقايا نيران عصفت واشتعلت فيها أحداقى..

كان منار حياتى..

كان شعاع الفجر القادم فى ظلماتى

كان عطاء الأمل النابض فى صلواتى

كان حياتى!

كلمة حزن

من صميم الويل، من جوع الليالى العاريات

نبتت دمعتنا..

ملحًا، بقايا من فتات..

فورة تغسل أحزان الزمان..

تمسح الرعشة عن أهدابنا..

مثلما يهتزُّ خطو التائهين

تحت أعباء السنين

---

* عام النكسة ١٩٦٧.

وارتجاف الذكريات

غرقت أحزاننا فى الصلوات!

والتفتنا ..

نسأل الأيام عن ماضٍ وآت

علّنا ..

نثقب الظلمة فى كل الجهات

مثلما ينهار حلمٌ غاب فى قاع العيون

كفنته الظلمات

ما الذى كان نقيًا فى يدينا

ما الذى كان نديا ..

نابضًا فينا .. ومات!

* * *

فمتى ترحل عنا يا ألم!

عارنا أنت، وسلوانا، وذكرانا معا

لم نعد نبصر فى أعماقنا شيئا سواك

أيُّ سر، أى طعم ، لم تلونه خطاك!

ويداك ، التفّتا تصنعُ من أعناقنا عبئًا ثقيلا

ولماذا لم تعدْ تتضج فى كرماتنا

غير عناقيد لياليكَ السحيقات القدم

العميقات الندم!

نحن غنينا .. وغنينا طويلا ..

وانتفخنا فوق إيقاع لياليك فحولا

وذبحنا بحة الصوت، وأتعبنا الطبولا

فلماذا .. حين غنينا تساقطنا ألمْ

وترنحنا مع اللحن .. طويلا ..

وتساندنا صفوفًا وصفوفا

وتماسكنا ذراعًا وقدم..

فإذا أنت النغم!

وتعرينا صدورًا وقلوبا ..

وشفاهًا لم يعد فى طوقها أن تبتسم..

وتهالكنا .. تغرّبنا على وهم القمم..

ولماذا ..

حين غصنا فى قرار الذكريات

وتحدرنا وراء الدمعة الخرساء فى أعيننا

لم نجد إلاك فى تاريخنا

وجهنا الباقى.. وأخدودًا عميقًا بالظلم..

مثقلَ النبرة والإيماء مشدوخ السمات!

فمتى، يا شجونا الكونىَّ، يا سمعًا عبرناه أصمّ

نملك الرؤيا ..

نصوغ الكون فى لا .. ونعم!

* * *

شائه وجه النهار

فى عيونٍ جهمة منطفئة

زائف زهو الليالى الصدئة

قبل أن نغدو كبارًا للملمات الكبار

قبل أن ترتاح أيدينا على نبض الحقيقة

ونرى الفجر طريقًا رحبة الصدر طليقة

ثرة الأشواك والأحجار، ملأى بالأمل

قبل أن نغسل بالحزن صدورًا .. لم تزل

يتحداها الوجل..

وترى الأشباح فى كلّ جدار

قبل أن نفتح للنور قلوبًا مظلمة..

عشيت من صبوات وانبهار..

أيها الحزن الفدائى الألم

كن لنا طوفان شك يغرقُ الأرض البوار

علها تمنحنا الفجر البطل..

كن لنا وانفض أماسىّ الغبار

يومها ..

نعرف طعمًا للنهار!

باسم الكلمة

من أى أرضٍ مرَّ سندبادنا الحزين

مجللا..

يخوض فى عباءة السنين

يحمل وزر عصره ووجهه المهين

من أى أرض مرَّ سندبادنا، وعاد

فلا التخوم رحبةٌ، ولا القلوع

مزهوة كالشمس، تمخر المدى

يا أيها القادم، من مسيل جرحنا

من بئره عميق من مغارة الصدى

من رحلة الدموع..

اليوم لامواكبٌ تزجى ولا أعلام

ولابيارقٌ تطل فى مشارف الزحام

ولاغمامةٌ تظلٌ ركبك الأمين

خرساء فى عيوننا دموع كبريائنا

وصامتٌ على شفاهنا تمردٌ الآلام

يا أيها القادم من «نابلس» من «صفين»

من كرمةٍ يرتاح تحتها «صلاح الدين»

وصبية ينسجن من ضفائر الحنين

للغائبين عن ديارهم.. دثار

يا أيها القادم بعد ألف عام..

تعطل الصمت.. تعطل الكلام،

وانتحر الفارسُ فى «حطين»

أهكذا مصائر الأيام!

* * *

لم تُهْزَمى.. يا كلمةً تطوف قلب جيلنا

وطلقة بحجم ثأرنا وعارنا

وصيحة تقفز من ضلوعنا..

لم تهزمى.. يا كلمةً أسلمها الأجداد للأبناء

مرويةً بالكبرياء..

مخضلة الحروف بالدماء

تمردت على غبار عصرنا المهين

ووجهه المرتخص الحزين

وطوفت تغوص فى معابر السنين

تلاحق الذى مضى..

تستشرف القادم من نهارنا..

وتجرف الحدود والسدود والركام..

السندباد عاد فى ضميرنا..

يُفتّحُ المحار والأصداف

ويلطم الشطئان والضفاف

يسير، لا بيارق تزجى، ولا أعلام

ولامواكب تخوض فى الزحام..

اليوم.. لامنطق.. لاكلام..

تكلمت أحزان «عمورية»

وجرحها الموغل فى الأيام..

إن لم يكن فى ساحها «معتصم» جديد

هل فيكمو أنتم.. «أبو تمام»؟!

لأنك الإنسان

حين لمحتُ ركبكَ المضرَّج.. ارتجفت

غاصت خطاى فى معابر الظلال والسنين

وفى الحناجر الصقيلة لنجِرفت

خيطًا رفيعًا.. ذائبًا بلا انتهاءِ

تشهقُ فى قراره بقية من البكاء

وأنت ظلٌّ وارفٌ مبارك النسيم

وسنديانةٌ عروقها تمورُ بالحنين

تمسحُ باليدين ما استكان من شقاء

وتنفض الحريق فى محاجر العيون

أقول للمعفرين فى غباره وجوههم

الموقدين فى عيونهم دموع كبرياء

والراكضين خلف صوته القديم

- من قاع وهمهم يعود صوته القديم -

ملفعًّا بنبرة اليقين..

أقول للمشيعين فى غُباره مواتهم

هنا حقيقتى التى عرفت!

* * *

وعن قريب كنتُ، حيث لا ترى العيون

إلا سحابة العناق، واختلاجة المناكب

التى تغوص فى قرارة الزحام

لكننى رأيت يا ابن جيلنا

ويا أب الذين يولدون

ما لا ترى العيون فيك من حقيقة الإنسان

ورجفة الذى يمور تحته التراب

بكلٍّ ما يضمُّه التراب من شجون..

بكلِّ صوتٍ كان ومضَ بارق خبا

بكل صرخةٍ تحشرجت ولم تجد أبا

بكل دمعة تساقطت على مواكب الطغاة..

وأنت سارٍ ملء خاطر السديم..

تبحث للذين يولدون فى الظلام عن دثار

تستلهم الوحى البعيد عن عيون الطيبين

الصابرين فى انتظار يوم ثار..

وددت لو ربضت فى الطريق تلةً على الطريق

تمتد فى عروقها جذور كبريائنا القديم

وتستدير كى تضمَّ ركبك العظيم

يا غامر الطريق باللحون..

وأنت.. وجهك الحنون..

وجهكَ الثرىُّ بالأشواق والأحزان

وجه مصيرنا المضرجِ النضيرِ بالحياة

يقودنا..

يقودنا..

يقودنا لشاطئ الأمان

لأنك الإنسان!

أحــزان الفقـراء

وانحنت صفصافة كانت على النهر تصلى

وانثنت صبارةٌ تغمس فى الشط المدمى راحتيها،

وهى تبكى..

تلثم الأرض التى ضمتك عودًا فارعًا كالسنديان

عندما عُدت إليها ذات يوم

قطعة من أرض مصر

قطعة من قلب مصر

---

* فى رحيل جمال عبدالناصر

نبتةُ تزهر خصبًا وحياة

وسرى فى القرية الخرساء إعصار الهزيمة

فارتمى كوخ بوجه الريح وانهارت سقيفة

ومشى الحزن، ثقيل الخطو، عبئًا فوق أنفاس

اليتامى والثكالى

طافيًا فوق الدموع..

يعصر القلب ويجتاح الضلوع

وترامى النبأ الفاجع فى صرخة بومة

أعولت جارتنا..

- غاب فتاها فوق شدوان شهيدًا -

وبكت أرملة ملتاعةٌ

- قد ثوى فى أرض سيناء أبو أطفالها

راقدًا من غير ثار -

طفلة توجس: ما عاد أبى

أماه.. قد حلّ الظلام..

وعيون لا تنام..

طار عنها النوم والأمن وأحلام السلام

فقدت حارسها الفارع والليل قتام

ما الذى فجَّر هذا الحزن فى قلب الرجال!

حزن آلاف الليالى والتواريخ العقيمة..

أجدبت من لقمة الخبز ومن طعم الأمان

عريت من كسوة العارى ومن دفء الحنان

ودعاوى الأنبياء

ما الذى شدَّ إلى الهول عيونًا ما تزال

ترتمى نحو السماء

باحتجاج الفقراء!

* * *

صوتك الحانى الجسور

قادم يجتاز أسوار التواريخ البعيدة

حامل من عطر «طيبة»

قصة المجد ورؤياه العجيبة

ساكب فى وضح الشمس وفى وكر النسور

لحن دنيانا الجديدة

فإذا الأرض نداءات وقمح وبراعم

وعناقيد كروم...، وغضب

وإذا الأرض عبير ومداخن

ومفاتيح وأنوال تدور

وإذا فى قريتى ألف هتاف يتصاعد:

أرضنا الحرة ما عادت تهادن.!

الدروبُ اتسعت..

ثم تلاقت..

والعيون انفتحت

ثم تلاقت..

والعقول اندفعت

ثم تلاقت..

لم يعد يوقف هذا المدَّ شىء

إنه طوفان تاريخ ملىء بالضحايا

ونداءات السبايا

واحتجاج الفقراء..

وإذا مصرُ على الضفة تختار وتبنى

بيتها المفعم إيمانًا وخضرة

لم تعد تحمل جرّة..

أصبحت تحمل كراسًا وإزميلاً وفجرًا

أصبحت تضغط بالإصبع زر الكهرباء

لترى الوادى حقولاً ورجالاً ومصانع

والفضاء الرحب عمرانًا وناسًا وشوارع

وتماثيل، وأحلامًا، وشعرًا

وإذا مصر لكل الناس فيها، ولنا

للحفاة البؤساء..

والعراة الأشقياء..

لم تعد سجنًا.. ولكن وطنًا!

* * *

مزقت فى يومك الفاجع ثوبًا لم تكن تملك غيره

مصر، لما خرجت تبكى أباها

راعها أنك لم تنطق كما عودتها

لم يجلجل صوتك الداوى مليا فى سماها

لم يدغدغ سمعها المشدوه فى هول الزحام

كان موسيقى لياليها وألحان هواها

وانتفاضات سراها

ما لها تطرق فى يومك إطراقة مذهول ذبيح

أفردوه فى العراء..

واليتامى الفقراء

حول نهر الدمع طوفان صلاة ودعاء

وأناشيد وداع.. وقسم

كنت فيهم.. واحدًا منهم.. لهم

حبَّة القمح وجلباب الشتاء

ويد الرحمة فى لفح البلاء

والأب الحانى إذا عزَّ الدواء

كنت فيهم واحدًا منهم.. لهم

صوتهم.. صوت المآسى والشقاء

والغد المأمول فى عين الرجاء

كنت فيهم أنت.. فى تاريخهم

لغة الأرض..

وموّال الفداء!

تحت ظلال الزيزفون

هذا .. أخيرًا .. وجهك المضرج الحزين

وجهك يا برلين..

بعد انقشاع الحلم، والدّخان والسنين

دامعة العينين، تنهضين من حطامك المهين

تتوجين بالسلام فجرك المنور الجديد

وتغرسين وردة بيضاء، فى حقول الطيبين الوادعين

---

* أتيح للشاعر أن يزور ألمانيا الديمقراطية في يوليو ١٩٧٠ عضوًا في وفد أدبى يمثل أدباء مصر، وهذه القصيدة صدى لاهتزاز وجدان الشاعر من خلال هذه الزيارة.

ذكرى لمن تساقطوا وفى عيونهم حنين

وفى جباهم تطلع وفى ضلوعهم سجين

ينبض بالحب، وبالإخاء، والأمان

وتمسحين عن جبينك العنيد، ثأرك العتيد

وتنفضين الظلم، والدمار، والأنين

يا عبرة الدنيا

نجوسُ فى ثراك، عابرين،

نطلّ فى عينيك، خاشعين..

نصافح البرج المطل، والكنيسة المهدمة

وحائطًا يكاد أن يرتاح للثرى..

تماسكت عروقه.. بقيةً من كبرياء..

ولم تكن تطيق أن يلمسها الفضاء

كانت تجاوز السماء والمدى..

شامخة تناطح الزمان والمكان

ولفحة من الدخان لم تزل مدومة

تعانق القصر القديم، والعمائر المصطدمة

تاركةً سوادها على ذوائب الجدران،

وفوق قبة المتاحف المهندمة..

ولم تزل تباغت الفنان، تستحلُّ وحيه ومرسمه

يا عبرة الدنيا نجوس فى ثراك عابرين، خاشعين

نطالع الغد الوضىء، والشوارع النظيفة، المنظمة

ونلمس الفن العظيم نابضًا، يضىء كل ساحة ومنعطف

وعندما تقول شارة الميدان: قف

نجول بالعيون فى المفاتن المزدحمة

يبهرنا اخضرارك المطرز الأنيق

يبهرنا قوامك المتئد الممشوق

يبهرنا فضاؤك الطليق

تبهرنا عيناك حين تهجعين طفلة، وحين تصبحين

معشوقة تسألنا: من منكمو العشيق؟

نطالع الأمس الملحَّ مرة ونرقبُ الغدا

أنشودة السلام أنتِ؟

أم أسطورة الدمار والردى؟

وروعة الحياة أنت؟

أم بقية المطامع المحطمة؟

متى يزول عنك وجه البومة المحومة

يطل من خرائب الدمار..

وتستريح مقلتاك تحت عبء الانتظار

يا فتنة نائمة.. مستسلمة!

«٢»

أحلم.. فى طفولتى..

بوجه جدتى «حبيبة»..

وكنت طول الليل ملء حضنها أنام

وفوقنا، تساّقط القنابل الثقال تقرع المدى

فنلتصق..

وأحتوى، بقبض صدرىَ الصغير، صدرها الكبير

كأنما أنفاسنا معًا، تذوب، لانحس أننا سنختنق

فالخوف جاثم على صدورنا، يجوس فى دمائنا ..

وملء ساحة الظلام..

الخوف جاثمُ.. ولامفر..

تسألنى مرتاعة العينين، جازعة

عن قصة الحرب، وعن ويلاتها الرهيبة..

ومن ترى سينتصر؟

وكنت وقتها ألعثم الحروفَ

صانعا منها حكاية عجيبة..

وصورةً مخيفة للويل والثبور..

وأقرأ الصحيفة التى أتى بها أبى..

مفسرا خطوطها الحمراء والسوداء..

وخاطرى مفزع يدور..

«الحلفاء يزحفون»

«الروس يسبقون.. يدخلون فى برلين»

وتمّحى العينان فى غياهب السطور..

وفوق سطح بيتنا راحت تئز طائرة

ويعول الصدى، يضجُّ مدفع، ويعول الصدى..

وتلمع السماء مثلما يضيئها قوس قزح

ونحن نحن الصبية الصغار، لم تعد تخيفنا المخاطرة

فالحرب للكبار..

يعرفها الكبار..

أعمارنا توقفت قبيل سن العاشرة

توهجى يا أرض بالشرر

واشتعلى بالهول يا سماء،

ماذا يهم.. طالما دفنت رأسى فى قميص جدتى..

وغابت اليدان والعينان فى الدعاء

أن يحفظ الله البلاد والعباد..

ويقبل الصباح، نلتقيهمو.. زرق العيون..

عصابة السكسون، يرتعون فى بلادنا

وعن بلادنا .. يدافعون!

كل صباح، يعبرون قريتى..

مهرولين فى اتجاه بور سعيد

محنيةً ظهورهم كأنما تنوء بالذى يُحمَّلون

راجفة ضلوعهم.. كأنهم للتوّ يصعقون..

كأنما فى كل خطوة.. يضاجعون

فوهة الدمار.. والردى

ويعول الفضاء من جديد..

وأسأل الصدى..

ما أبعد الطريق.. والمدى!

وأين نحن؟ أين نحن منك يا برلين!

«٣»

رأيت «جوته» العظيم سائرًا يختال فى «فايمار»

تحت ظلال الزيزفون..

يصافح الزهر ويسمع الأشجار..

وينتقى من باقة الصبايا..

زهرته الريفية الوديعة..

رفيقة الحياة والمصير..

رأيته، كان يغنى للطبيعة الحسناء لحن حبه الكبير

مرددًا: «أحس فى فايمار

بأننى حرّ وأننى عظيم..

كهذه الطبيعة التى تمنحنى روح الخلود..»

وحين أقبل الصدى..

رأيته يبكى، وخلفه معسكرات الاعتقال

فى قبضة النازى، يموت فى أفرانها النهار..

يغيب فى أفرانها الأحرار..

يغيب فى أفرانها الأطفال والنساء والكبار والصغار

وتختفى الأجساد والأطراف والضلوع والأبصار

تهرأت، تفحمتْ، تطايرت هشيم نار..

وهذه السلالُ والأعواد من بقية الجلود..

رأيت جوته العظيم، باكيًا، وشاردًا..

يمزق الأوراق، والأزهار، والأشعار

يصيح: ياللعار!

نعود يا برلين من فضائلك المديد..

نعود من «جيرا» ومن «تارانت» فى عيوننا سؤال:

هل بعد هذا يا إلهنا جمال؟

وتلتوى الوجوه والأعناق..

يشدّها انبهار لفتة إلى الظلال..

وآه ما أقسى الجمال حين يصبح الجمال فى عيوننا محال!

ـ «كأننى ولدت هاهنا..»

يصيح واحد من الرفاق..

فى كل ركن ها هنا ومنعطف

تسللت من بيننا سويعة قصيرة فريدة

ولحظةٌ عميقة العطاء بالسلام والأمان

ونحن هائمون.. لاطريق.. لاهدف..

ـ «كأننى ولدت هاهنا..»

تلك الظلال، والزقاق والروائح المبعثرة

ولفحة الرطوبة المستترة..

وعبق الزمان حين يصبح الزمان

غلالة، طافية، منتشرة..

هذى الأناقة الوديعة المنمنمة..

تعكسها الوجوه والجدران..

وساحة الدهليز حين يلتوى، ويحمل الخطى بلا استئذان

يقودنا.. إلى الصفاء والسلام والأمان

فى البلدة الصغيرة المنغمة..

.. ..

نعود يا برلين من فضائك المديد

نحمل فى عروقنا إصرارك العنيد

ووجهك المضمخ الجديد

وأنت تتبضين بالحياة والإيمان..

وتتثرين الحب فى أعمدة الدخان..

وتعبرين السور نحو فجرك الوليد

يا يوم رحلة العبور

يا يوم هدم السور[1]..

يداك تومئان للرجال من بعيد

وتغسلان عن صدور الطيبين الوادعين

مرارة الأحزان..

يا لوعة .. الإنسان!

---

(١) كتبت القصيدة قبل هدم السور بعشرين سنة

نداء سلام

فى «باكو» أو فى «موسكو» أو فى أى مكان آخر

تملك أن تصبح إنسانا

إنسانًا يحتضن العالم عبر تخوم الأسوار المحدودة

ويرى الأشياء كما لو كانت تولد أول مرة

إنسانا..

يقرأ تاريخ العالم فى قاع عيون مشدودة

---

* كتبت هذه القصيدة خلال زيارة الشاعر للاتحاد السوفيتي في سبتمبر ١٩٦٩ عضوًا وفد إذاعى.

تمتلىء نضالاً ومحبة

تتلاقى باسم الأمل القادم عبر الظلمات

تنهار حدود ومسافات

وتطل الأيدى الممدودة

تتعانق من بين الكلمات

وجهًا ويمينًا.. ولسانا!

* * *

فى قلب الليل الصامت يولد حرف يتكلم

ينطق باسم الإنسان

القادم عبر مساحات شتى، عبر الآفاق الممرورة

يحمل فى جنبيه نداء سلام..

وهنا، فى قلب الهدأة فى باكو

يتدفق ضوء الفجر على موجات خزرٌ

لكن الفجر الغائر فى قلبى لم يشرق بعد

فجر دام فى بور توفيق

يتلمس فى وهج الموت طريقًا نحو الغد

ويغنى رغم الآلام..

* * *

فى «طشقند» بقايا من قلبى وحروف من كلماتى

تلتصق بجدران الزمن الخالى المهجور

وترابٌ يحمل عطر الفجر الأول فى تاريخ بلادى

وبقايا أصداءٍ خفتت من قافلة النور

الفاتح يعبر أرض «النهرين» يصافح سور الصين

يلطم وجه الظلمات ليشرق وجه الانسان

ويخاطب سمع الأرض بأجراس الملأ الأعلى

ويهزُّ الأصنام الوسنى فى أعماق القلب المذعور

الفاتح يفتح باسم الحق طريقًا للإنسان

يزرع فى درب الأيام بذور إخاء ومساواة

تنمو، فتوحدُ كلَّ الناس، تباركهم باسم الإيمان

وتُشيّدُ باسم الحق قلاعًا ومنابر

يرقاها الأسود والأصفر والعابد والزاهد

والعائد من ساحات المجد

أبطالاً كانوا .. ركزوا المشعل فى قلب السند

أطلالاً بقيت.. مازالت تشرق بالنور

تحملُ هذا الوجه الباقى من صفحاتى

تتحدى مرَّ الأيام!

* * *

أوشك أن تمتدَّ يمينى لتصافح وجهًا مألوفا

وجهًا عربىّ السمت نديًا بالبسمات

أوشك أن يتلاقى الغابر والحاضر فى قلبى

تتداخل فى سمعى أصداء صليل وصهيل

وفيالق وبيارق شتى ونداءات

أوشك أن أغرق فى هذا الوجه الزاخر ألوانًا وطيوفا

وجهك هذا المتلألىء دومًا فى قلبى

يصل إلىَّ هنا، عبر الآماد وعبر الأبعاد المجهولة

يجتاز حدودًا وسدودا

ويضىء طريقى الموغل فى الأشواق وفى التذكار

ويقود خطاى إلى واحات الأمل الدوار

يا نجمة أيامى يا نور القلب

فتعالوا نعبر هذا العالم باسم الحب

ما دمنا نملك أن نتلاقى فى كلمات!

أصوات من تاريخ قديم

١ ـ سيف الدولة

أدخلُ حلبَ الشهباءَ طليقًا أو مأسورا

أغزو..

أطعنُ صدرَ الروم، وأهتكُ درعَ الرومِ،

وأجمعُ أسلابَ الهلكى، والمذعورين

أتحولُ فى يومِ النصرِ بيارقَ وفيالق

ونسورًا شماً وميامين

أدخل حلبَ الشهباء، طعينًا أو منصورا

أدخلُ فى ركبكَ يا سيفَ الدولةِ، خلفَ غبارِ الفتح،

وتحتَ لوائكَ يا سيف الدين

تثقلنى باقاتُ النصر، وتحملنى أعناقُ المنصورين

تدفعنى موسيقى، لم تعزفها أرض بلدى، منذُ سنين

وأنادى

من قاع الحزن أنادى

ـ فأنا يا سيفَ الدولةِ دمعٌ فى عين بلادى ـ

يا سيف الدولة

كلُّ سيوف العربِ تصلصلُ فى الأغمادِ،

تهسهسُ فى صدأ الأقفالْ

يا سيفَ الدولة:

كلُّ خيول العربِ تحمحمُ فى الأوتاد.

وتصهلُ فى نوباتِ التذكار

تحملُ تاريخًا مذعورا

فلعلَّ الفارس يصحو، ينهضُ من كبوتهِ،

يمسح صدأَ الحزنِ،

ويغسل عار الأشعار!

* * *

يا سيف الدوله:

أبناؤكَ - يا للعار -

فى سوقِ الهلكى باعوك..

وعلى أسواركَ فى يافا - آهٍ يا يافا - صلبوك

وعلى أرضكَ فى عمانَ الثكلى داسوك

داسوا وجهك، وجهَ رفاقكَ فى حطين

ألقوا باسمكَ، باسمِ بلادى، فى قلب الطين

سقطتْ خيلاءُ الفتحِ، وضاعتْ راياتُ الشهداء

مزقًا تحت خيول الفَلَك الدوَّار

واصفرتْ أشعارٌ كانتْ باسمكَ مجلوة

تهتزُّ إباءً وحمية

«وأبو الطيب فى صدر المجلس يختالُ بقافيةٍ عنقاء

ويقارعُ غربانَ الشعرِ وأنصافَ المغمورين

ويردُّ سهامَ الموتورين بنارٍ من كلمات..

كلمات غضبى.. عربية!»

المادحُ أغفى.. والممدوح

لكنَّ الخلقَ جميعًا، سهروا يختصمون ويحتكمون

وسراياكَ تدكُّ قلاع الروم، تدكُّ عروش الروم

وتعودُ بوجهِ النصر، ووجه الشعر

لكنَّا نحن سقطنا عن صهوات المجد،

وعن صهوات الشعر

لما صرنا أسرى أو فارين

وتدورُ عباءاتٌ سوداء

بحثًا عن وجهٍ عربىٍّ معبود

بحثًا عن يوم عربىٍّ موعود

يحملُ شممَ العربِ، ويغرسُ فى قلب الصحراء

أغصانَ سلامٍ، ومنائر

ميلادَ فتوح ، وبشائر

وتدور عباءات سوداء

تتشبث بعروق الغبراء

وبحبةِ رمل فى صحراء

والكل هباء!

* * *

أتساءلُ؛ يا سيف الدولة

هل ضاعت من أيدينا كلُّ مفاتيح الحكمة؟

فسقطنا فى بئر النسيان..

وأكلنا ثمر العدم الأسود

وضللنا الدربَ، فنحن نجوبُ صحارى التيه

تتقاذفنا ليلاتُ الرعب، وأوهامُ المخموين

لكنّ، لا لوحَ، ولاكلمة

لافجر يشيرُ، ولانجمة

تصطدمُ الظلمةُ بالظلمة

ونظل حيارى مشدوهين
أتساءلُ يا سيفَ الدولة:
هل فقدتْ نارُ جوانحنا وقد الهمة؟
نقرؤكَ الآنَ فلا نرتاعُ، ولانهتزّ..
أولسنا موتى، مقبورين!
والموتى، هل يدميهم وخز؟

٢ـ أبو العلاء

الليلُ فى «معرةِ النعمان» جاثمٌ عنيد
تلاصقت ألواحهُ كحائطٍ صفيق
وامتدَّ من حبالهِ الغلاظِ وجهُ فاتكٍ جسور
ينسلُّ فى دائرةِ الألوان والظلال
بحثًا عن الجياع والعبيد
والموثقين فى ضلالة القيود
وأنتَ فى ذهولك الكونىِّ مثقلٌ شريد
ترود بالخيال عالم الصراع والأضداد

تمدُّ للسماء

عقلاً طليقَ اللمح، وارىَ الزناد

يقدحُ باللهيب والشرر

مشيعًا فى دورة الزمان والفلك

حقيقة الأحياء والموتى وجوهر الصفات والأشياء

منفتحًا على صفاء النفس والسريرة

محدثًا .. مرددا

«الكون يا صحاب فى قلوبنا يضىء،

حين تميلُ للرحيل زهوةُ العيون

فتبصرون.. يالهول ما ستبصرون!

وتشرق الجوانحِ الدفينة

بكلِّ سرٍّ كامنٍ فى قاعها يطوف..

عاريةً من الشكوك والظنون

نقيةً من الهوان أو مذلة السؤال

طليقةً من ربقة الخوف ومن أسر المتاع

تسّاقطُ الأوهام والحتوف

ويصبح الموت صدى، وتصبح الحياة حزمة من الظلال..

الكون يا صحاب ليس ضحكة وليس دمعة

لكنه رحى تدور تطحن الهشيم والرماد

والباذخَ المعتد من شوامخ الجبال

بورك من يظل فوق ظهرها حبة رمل أو حصاة

تعوق ثقل الرقِّ والفجيعة

ووطأة الإذلال بالرغيف

لانقطة الزيت التى تمنحها اكتمال دورة الحصاد

يا من يدلنى على المسافر الحصيف

تحررت عيناه من رغائب البشر

يضىء للإنسان، حيث كان ، شمعة!»

يا شيخنا، يا شيخنا الضرير:

ماذا رأيت من وجوهنا فاخترت راحة البصر

ويقظة البصيرة!

ماذا سمعت من حديثنا العبوس، فاعتزلت

منقبًا صحيفة الزمان، عن أَثـرْ

قرأتَ فاكتفيت أم علمتَ فاسترحتْ!

لكنَّ قلبك الكبير، كالشعاع، دائمًا على سفر

يجوب بدء الكون والختام

ويلحق القادم بالذى مضى

فى رحلة المعنى وفى قافلة الأيام

يا شيخنا، يا شيخنا الضرير

هل آن للإنسان أن يطاول السماء

بنبض قلبه الصغير حين تومض العينان بالأحلام!

بقبضةٍ لم تتسع للمسة السلام

لكنها تغوص فى ذبائح الدمار والحطام

هل آن للإنسان أن يجاوز الآلام

مهاجرًا من عالم الملال والسآمة

إلى صفاء «المحبسين»

وعالم النقاء .. والكرامة!

٣.عنتـرة

منفردًا، وتائها

منفردًا فى ساحة العراء، هكذا يُجندل البطل

ويسكن الصوت الملحُّ، غير نجمتين ، مقلتينِ

تسبران غور ظلمة الصحراءِ

تبحثان عن وميض مقلتين، أخريين، عن أمل

ويسقط البطل

مضرجًا بسيفه،

مجندلاً على وسادة الأجل

صريع لعبة الحياة والردى

ويسكن الصوتُ.. ويقبلُ الصدى

.. ..

«فداء وجه عبلتى يهون كل شىء

فداء ثغرها الباسم أستدير للحتوف

مقبلاً، معانقًا..

منطلقًا من ذلةِ العيش، ومن رقٍّ السواد فى الجبين

منتصرًا على الفضاء، والمدى»

منفردًا .. وتائهًا

يسقط سيفك العظيم فى دوامة الرمال

محملقًا فى العالم الذى يفتت الرجال

مستوحشًا، وشائهًا

يا عبلُ.. يا حريتى

يا أملاً رفّ ودار واستدار فى خفوق مهجتى

هدهدته طفلاً على مدارج الثرى

وحين شبّ، شبت الحياة فى عروق صبوتى

منفتحًا على رغائب الشباب وانطلاق زهَوة المتيمّ الشجاع

يصنع باليدين ، عالمًا ، نما ، ترعرعا

كسرتُ قيدى عندما صرنا معا

ـ نما، نما، وأينعا ـ

حطمت رقى عندما صرنا معا

نخوض فى عجاجة الميدان، نلطم الأقرانَ

باسمكِ النبيل، باحتواء مهجتى عليكِ،

بارتسام وجهك المنورِ الوضىء فى سريرتى

وأنتِ فىَّ تمنحيننى تميمةَ النجاة

- مخاطرًا وسط الردى أقاتل -

تُلّقين فى صحراء عمرى واحة الأمان والسلام

تباركين فى خطاىَ وقفة الصمود والإصرار والتحدى

وعنفوان ثورة العبيد حين يحلم العبيد بالحياة

ويسقطون دولة القيود والسلاسل

يدعون: ويكَ عنتر المقدام.. كنْ لنا

لعبلةَ المنى، لعبسٍ للعرب

لكلِّ مظلوم مطارد يقتاته الحِمام والظلام!

* * *

من أجلهم، من أجل عينيك الجميلتين

لبست ثوب الموت، وادّرعته مسربلا بالدم

هصرتُ عيدان الغضب

آنست غيلان الفلاة والسباعَ العاوية

وأنتِ.. حيث كنتُ غايتى ورايتى

تبددين قسوة الوحشة والظلام

وتكشفين الجوهر الخبىء فى قتامة الأيام

* * *

عنترةُ الفارسُ: كان هاهنا، وغاب

عنترةُ العاشقُ: عاشَ هاهنا، وغاب

عنترةُ الإنسان: كان واحدًا منكم، وغاب!

لؤلؤة فى القلب

أنـــت

يعبرُ العامُ..

ويأتى العامُ..،

نرتاح إلى رؤيا جديدة

نعبر الكون، كطيرين وحيدين، على متنِ قصيدة

ونرى الأيام، والأحلام، كنزًا لا يحدّ

وعطاء... كالأبد..

يلتقى العامان فى لحظة ضوء قدسية..

وصدى الأجراس فى الأسماع، أفراح شجية

ونداءات لفجر سوف يولد

أى شىء يا ترى، يحمل فى كفيه، فى عينيه،

فى آفاق

رؤياه البعيدة

تعبت منا الحكايات القديمة،

والنداءات الشهيدة..

تعبت منا الدهاليز التى كم ضيعتنا

وهى تخفينا عن الأعين، عن كل المساحات البليدة

يعبر العام،

ولكن..

لم نزل أكثر نبضا وعطاء

وحنينا للذى فاتَ

وللقادم: شوقا ورجاء!

* * *

يعبر العام، ويأتى العام،

لكن..

أنت تبقيّن وجودًا .. وأمل

وطريقا نابضا باللمسة الأولى، عميقا كالأزل

وشعاعا ثاقبا أفُق حياتى..

ساكبا فى عمق ذاتى.

قطرة الضوء.. الوحيدة..

وأمان الأرض.. للنفس الشريدة

وهى ترتاح إلى شاطىء دنيانا الجديدة

وهى تهتز إلى لون المسافات المديدة

لحظة تولد فينا،

كانهمار السيل، كاللمحِ المشعِّ الضوء،

كالرؤيا العجيبة..

يعبر العام، ولكن أنت تبقين حياتى

وسنينى القادمات،

فى غدى

والذكريات!

حبنا

فى الزمن المفرقِ فىِ القتامة

لا يملك الإنسان - كى يواصل المسير والترحال

يجوس أطلال النفوسِ والوجوه الخربة

وعبر آلاف الضحايا الساقطين تحت وطأة التجارب المخيبة -

لا يملك الإنسان غير أن يصيح فى العراء باسمكَ المؤانس الودود

لعله يمتلك الجسارة المفتقدة

ويستطيع الخوض فى الوحول والأهوال

بحثا عن الأمان والسلامة!

* * *

فى الزمن المغرق فى السآمة

ولذعةِ التكرار حين يصبح التكرارُ يومنا وأمسنا

وتأسن الأشياء، تأسن الطعوم فى حلوقنا

توقفت سنابك الزمن

وارتعدت فرائصُ الذين يحملون بيّرقَ الخلاص

واشتبكت أصواتنا فى زحمةِ الهتاف، فى دوامة النباحِ،

فى حشرجة الصدور والأنفاس

يبقى لنا الصوتُ الوحيدُ،

صوتنا اليتيمُ،

صوت حبنا القديم،

يأيها المدججون بالسلاح، أيها الحراس:

الليل مطبق.. ولا مناص!

* * *

فى الزمن الذى انحنى، على صدورنا انحنى، شارة عار!

نحمله كالخنجر المسموم، فى ضلوعنا، ونتكىء

يغوص فينا حدهُّ المسنونُ، غاصَ حده المسنونُ، آه

يا لذاذة الألمْ!

وكاذبٌ هو البكاءُ.. والشكاية المهترئة

وباطلٌ هذا التظاهر المقيت بالندم

فليس فى عيوننا سوى انطفاءة العيونِ فى انكسار

وأنت قابع هناك هامد الجناح، راعف المنقار

- يا حبنا الحبيس فى خزائن التذكار -

تجيئنا من بعد غيبة الربيع والأمطار..

محملا بزادك الوفير من بيادر الأسفار

حكايةً تؤنسنا،

تشعل فى شتائنا رغائب انتظار

لعلنا..

نصنع منك عالما يعيشه الصغار

ويشرق النهار!

أغنية الزمان القبيح

ومن بين كل النساء، وكل الوجوهِ،

لماذا توقفت عندك أنتِ؟

وحدقت ثانيةً وانتفضتُ..

وأيقنتُ أنكِ. لابدَّ أنتِ!

شعاعٌ بعيد بغير انتهاء

وصمت عميق المدى.. لا يبوح

وحزن كآثار جرح قديم

وسمتٌ تجللهُ كبرياء

أأنتِ!

كنفسىِ التى لا تقرُّ

كأفقى الذى لايُبينُ

كيومىِ الذى يترنح، يهوى، تغوص مناكبه فى الشقوق

تحدق عيناه فى جثة الأمس، تفترشان مساحة دربٍ

تقودُ خطاه إلى الهاوية

ويؤمنُ،

يرفض،

ينزعُ كل غشاوةِ سجانهِ،

ويبصرُ حجمَ قزامته، وصكوكَ خياناتهِ، فيصيحُ،

ويختنقُ الصوتُ، يخفتُ إذ يتلاشى،

يحاول أن يستبينَ الصدى، فيضيع!

معا فى الزمانِ القبيح نسيرُ،

معا فى وحول الوحول نخوضُ،

معا نلطمُ اليوم وجهَ المخاتلِ، وجه المراوغ،

وجه الجبان المكشر عن كل أنيابه، وجه كلٌّ الذين
يقولون لا يفعلون، وياليتهم لم يقولوا،.. ونبقى معا..!

* * *

ومن بين كل القصائد

تظلين غابةَ شعر، تنوءُ عرائشها بالكرومْ

وتصدحُ أطيارها بالغناءِ الرخيم

وتلمع أنهارها بالنجوم

وتحملُ أعشاشها اثنين،

يلتصقان،

يذوبان،

ينغمسان بحضنِ السديم

يعودان بعض أثير قديم

يجوبان كونَ الرؤى

يجوزان كل التخوم..

يطلان ثم يشيران:

«هذا الذى فى الثرى تكوّرَ وامتدَّ: وجه دميمٌ،
بطينته، وبأضغانه، وبكلّ صراعات أيامهِ، ورهبةِ
سجانه، وبكل مذلةِ أبنائهِ خلف سوق الرغيف،
وكلّ وضاعة حراسه القابعين وراء القصور،
وكل تمزق أبطاله الحاملين غبار المفاوز،
شارة عار القبيلة، غار الحتوف،
رجيم.. رجيم».

* * *

تظلين فىَّ، وحولى،
وفى كل درب سلكتُ،
وكل شعاعٍ يعانقُ نفسى، فتشرقُ، تصفو، تشفُّ،
تغادرُ طينتها
تظلين: أنتِ البدايةُ، أنتِ النهاية،
أنت سفينة عمرىَ!، مرفئىَ السمحُ، واحتىَ الخصبةُ
المشتهاةُ..

تظلينَ تعطينَ لا تسأمينَ، ولا أنتِ تنتظرينَ العطاءَ،

ولا تحسبين المودةَ بالشبر أو بالذراع

وشرّقت، غربتُ، سيانِ،

لابد يلتحمُ الكوكبان،

كأنا قدر!

وأنتِ ككل البشر

عذابٌ وشوقٌ وضيقٌ ولهفة

وشكٌ ويأسٌ وأنسٌ وغربة

وصد وتعويذة واشتهاء..

ويمضى الخريف ويأتى الشتاء

فتهتز فى الصدرِ رجفة..

وتقدحُ أعّماقنا بالشرر

ومن كل ما فى الحياةِ كيانك، هذا الذكىُّ التأثرِ،

هذا الفريدُ الملامحِ، هذا النقى الغرابة

تظلينَ حولى سحابة

تظلل عمرى،

تروّى حدائقه بالمطر

ونمضى معا!

الرغبة المعتقة

فى زحمة الوجوه، فى تعدد الوجوه والأسماء
لا تخطىء العينانِ وجهك المضمخ المنعم البهاء
فى زحمة الأنغام، فى دوامة السكون والضوضاء
لا تخطىء الأذنان موسيقاكِ حين تستديرُ لفتتك
وأنت إيقاعٌ ونبضٌ كبرياء..
فى زحمة الأنفاس فى تماوج الظلالِ والألوان
لا تخطىء الأنفاس عطرك الفريد فى النقاءِ
وأنت سحر باهر ونشوةُ افتتان

وموجةً خضراءُ لا تقرُّ فى مكان

وغيمة مشدودة العروق للسماء

تسحُّ فى عيوننا على المدى ضياء

وتسكب الأشواق فى أعماقنا.. نداء..

* * *

كأننى من ألف عامٍ جئت بابك الوصيد

أبحث عن تميمةٍ وعن دثار

وأحتمى من لفحة الهجير والأمطار

فى ظلك الوريف أحتمى..

فى روضك الظليل أرتمى.. وأنتمى

فى دفئك الوثير أنسج الأمان والأشعار

وأنت مأواى الوحيد والفريد

واتسعتْ عيناك لى..

عيناكِ للغريب دار..

عيناك ملجئى الأخير حين يدبر النهار

كأننى من ألف عام جئت بابك الوصيد

واتسعت يداك لى،

يداك لى جدار

واخضوضرت خمائل التذكار

يداك تعبران خاطرى

ترتجفان، تستديران براءة انتظار

وتستحثان الخطى إصرار

كأنما من ألف عام كنتِ لى..

من شدة التصاقنا أقول:

لو كنتُ لفظة وحيدة على فمك

إذن أقمت ها هنا وما ارتحلت

لو كنت لمعة وضيئة بمقلتك

إذن فهاهنا عبرتُ واسترحت

لو كنت لحظةً سخية بشرفتك

إذن لعشتُ ها هنا وما برحت..

لو كنت رنّةً بعيدة بمسمعك

إذن لذاب خافقى الذى عزفت!

* * *

أحلمُ أن تطيحنا رغبتنا المعتقة..

من ألف عام وهى تنقر الجدار، دون جدوى،

تنقر الجدار

حبيسةً فى القاع من عيوننا المحترقة

وفى ظنوننا المعلقة

مسلوبة الرنين والصدى..

عارية لم تستترْ، لم تصطنع إزار

قد آن للغليل أن يروَّى..

وللغريق أن يصارع التيار..

قد آن للسجين أن يفكَّ من قيوده وينطلق

كأنه إعصار..

ما دمت لى.. ما دمتِ لى

فأجمل الأشياء أن نصارع الأقدار!

لؤلؤة فى القلب

من خـافـقـى، من عـمق هـذا الكـيـان

تهـتـز فـــى سـمـعىَ أغـرودتان

من كل مـــا يحـــويه وجـه الـزمـان

وأنتِ لحـــنا نـــشـوةٍ وافـتـــتـان

إيقـــاع حـــب غـــامـــر يسكبـان

تبـســمتْ فى الليل لى نجـمـتـان

عـيناك.. فـيض الـسـحـر.. فـيضُ الحنان

عـيناك .. من تبّرٍ هـمـا أم من جـمـان

لؤلؤة فى القلب؟.. بل حـــبـــتـــان

وقـطـرتـا ضـــــوء؟.. أجـلْ قطـرتـان

وضـيـئـتـانِ كـالسنا.. نقـيـتـان

* * *

أرتاح كـــالموجـــةِ.. للشـــاطـىء

فى صـــدرك المخـــضـــوضـــر الناتئ

فـــى هـمـسكِ المســتــرسل الدافـىء

المنـــتـــهـى فـــىَّ أو البـــادىء

فـــى وجـــهـك المنور الـهـــانـىء

فـــى حلمنا المســتــغــرق الهـادىء

يـــا فـــتنة المصـــور البـــارىءِ

وروعـــة الـعـــابد والقـــارىء

* * *

مـــاذا لو امــتــدتْ يـدٌ فى البـعـيـد

تفـــسح لى درب الحـــيـــاة الوليـــد

وتنفضُ الأمس القـــديم الجـــديد

وتحـمل الفــجــر القــريب البــعــيـد

دنيــا اشـــتـــيـــاق وبقـــايا وعـــود

ونحن نبـــدى حـــولهـــا أو نعـــيـــد

ونعـــــبـــــر الأيام طيـــرًا شـــرود

يســـــبح فى روض الأمـــــانى المديد

ويسكب اللحن الشـــجىَّ الفـــريد

أغنيـــة كـــالعـــمـــر.. لا كـــالخلود

* * *

هـذى يدى تمتـــــدُّ.. هـذا فــــمـى

يشـــــدوه وهـذى نشــــوتى فى دمى

ونفـــحـــة تغـــمـــرنى فـــأحـــتـمـى

وأســــــتظل فى حـــــمـى الأنجـم

وخـطـوة تحــــــمـلـنـى فــــــأرتمـى

فـــــغـــايةُ النشـــوة أن تقـــدمى

ومنتـــهى الفــرحـــة أن تسلمى

وقــــمـــة اللحظة.. أنِ أنتـــمى!

لحظة لقاء

كم يبقى طعم الفرحة فى شفتينا!

عمرًا؟

هل يكفى!

دهرا مسكوبًا فى عمرينا..

فليهدأ ناقوس الزمن الداوى فى صدرينا

ولتتوقف هذى اللحظة فى عمقينا

لن نذكر إلا أنا طوّقنا الدنيا، أغفينا

وارتاحت كفانا.. تغرس دفئا فى روحينا

لن نذكر إلا أنا جسّدنا حلمينا

وارتاح الوهج الدامى فى عينينا!

* * *

قلبكِ فى صدرى، يسمعنى أغلى نبضاته

يهدأ فى خلجات اللقيا، أغفو فى أعمق خلجاته

وأطل عليك، ضياء العمر، ونضرة واحاته

أقبسُ ومض الأمل المشرق فى لفتاته

أرشف نبع الضوء الهامى فى نظراته

يسّاقط كل رحيق العالم فى قطراته

وأرى دنياى وأيامى أبدا تمشى فى خطواته

* * *

أسأل: هل تتسع الأيام لفرحة قلبين؟

تعبا،

حملا الدنيا،

عاشا مقرورين..

هل يخبو هذا الألق الساجى فى العينين!

ونخاف يطير، فنمسكه ، ونضم الدنيا بيدين

ونعود إلى عش ناء نرتاح إليه طيرين

أسأل: هل تتسع الأيام لنضرة حلمين!

أقرأ أيامى عندهما كونا يتفجر لاثنين

* * *

عيناى تقول، يداى تحدق ، والأشواق

فيض يغمرنى، يغرقنى فى لفح عناق

وحريق يأكل أيامى.. يشعل نيران الأحداق

مازلنا من خلف اللقيا نبضا فى صدر مشتاق

أملا يتجدد موصولا .. معسول شراب ومذاق

بين عينيك موعدى

«بين عينيك.. موعدى..»

وأنا أحمل أيامى وأشواقى إليكا..

وأرى فى الأفق النائى يدا تمتد كالوعد، وتهفو

وأرانى نحوها.. طوع يديكا..

من قديم الدهر، كانت نبضة مثل اهتزاز البرقِ

مثل اللمح،

شىء لست أدريه احتوانى،

فتلاصقت لديكا..

يومها، وارتعشت عينانِ

أغفى خافقان،

استسلما للخدر الناعم ينساب ويكسو وجنتيكا

يومها، واتحدت روحانِ

أغفت مقلتانِ

اختارتا حلما برىء الوجه، حلو السمتِ

عشناه نديا، أخضر اللون، وضيئا

وقرأت العمر مكتوبا.. هنا.. فى مقلتيْكا!

* * *

«بين عينيك موعدى..»

وأنا كل صباح أتلقى نبرة اللحن المندّى

ساكبًا فى قاع أيامى ربيعا واشتياقا ليس يهدا

ليس يرتاح.. سوى أن عانق العمر وضما

ليس يرتاح.. سوى أن أشبع الأيام تقبيلا ولثما

وتهادى، كاخضرار الفجر، مزهوّ الأسارير

طليق الوجه، مضموما إلى وجه المفدى

لمسة، وانطلقت منك يد

تعزف أنغاماً..

وتهتز رياحين ووردا..

مسحت جبهة أيامى، محت عنها عناء وتهاويل وكدا

واستقرت فى يدى لحظة صدق، خاشع الخفقة

ينساب وعودا..

ذقتها وعدا فوعدا..

ذقتها يا مسكرى.. شهدا.. فشهدا

* * *

«بين عينيك.. موعدى..»

يومنا القادم أحلى.. لم يزل طوع هوانا

كلما شارفت الحلم خطانا، واطمأنت شفتانا

واستراحت مقلتانا

وتمنينا، فكان العمر أشهى من أمانينا، وأغلى

وظننا أن خيطا من ضياء الفجر يهتز بعينينا،

سلاما وأمانا..

كلما قلنا بدأنا وانتهينا..

صرخت فينا وفى أعماقنا، لحظة جوع ليس يهدا

فرجعنا مثلما كنا،

وكنا قد ظننا الشوق قد جاوزنا، وانداح عنا

ويد تمتد من خلف الليالى، كى تطلا

نسجت ثوب حنان ليس يبلى

طوقت أيامنا الخضراء أحلاما وريحانا وظلا

يومنا القادم.. أحلى

يومنا القادم.. أغلى

أروع من عينيك.. لا

أروع من عينيك.. لا

النجمتان.. تهديان خطوى الأمين

منارتان.. تثقبان ظلمة السنين

فأهتدى إليك..

وألمس الأمان فى يديك

وأعبر المدى الحزين..

أروع من عينيك. .لا

سفينتى إلى مرافىء القمر

وديعتى..

وزادىَ الكبير.. والسفر

على شعاع مقلتيك

يا بسمة مهاجرة

من عالم الأثير والصفاء

من روضة العبير والنقاء

وضيئة.. وعاطرة

* * *

أروع من عينتيك.. لا

شعاعتى إلى المساء

ورحلتى إلى الضياء

جناحىَ المرفرف المحلق المفتون

وعالمى الخصيب باللحون..

أقول: ما أبهى .. وما أجملا

أروع من عينيك.. لا

* * *

عند انكسار الضوء ثَمَّ موعد لنا

نخطفه من قبضة الزمان والمكان

التائهان فى مسيرة العراء

فى لفحة الهجير والصحراء

تقلبا..

على مرافىء السلام والأمان

تغّربا..

عند انطباق الأفق، والسماء

توشك أن تهم بالبكاء

سحابة سخية معطاء

وديعة تُظلّنا

عند انكسار الضوء، ثَم موعد لنا

عيناك فى الطريق كوكبان يهديان

يداك تمسحان رعشة الأحزان

تذكار ما مضى من الزمان

وتسكبان الظل والرحيق والحنان

فى الدرب.. عند المنحنى..

فثَمّ موعد لنا..

نخطفه من قبضة الزمان والمكان

أعود لا أذكر غير ملمس الأشواق

ورعشة محمومة كأنها عناق

ولحظة وحيدة تضمنا..

فأعبر السنين كى أراك..

أعود تغرس اللحون فى جوانحى خطاك

رقيقة..

طليقة..

كأنها يداك..

أعود ملء خافقى بريق مقلتيك

يضيئنى..

يهتف بى..

يضمنى..

يشدنى إليك..

يكشف لى سبائك الأعماق

يا كنزىَ الفريد والوحيد

فى رحلة الهجير والأشواق!

أنادى عليك

أنادى عليك..

برغم المسافات، رغم انهمار الليالى

برغم انطلاق الزمان، برغم امتداد المحال

برغم اقترابك منى.. أنادى

برغم ابتعادك عنى.. أنادى

وأعلم أنك فىَّ..

وأن طريقى إليك يؤدى إلىَّ

ويفضى إلى خاطرى واعتقادى

وينثر زهر هوانا القديم على كل ظل وواد

وما زلت رغم الليالى أنادى

ألست رحيقى وزادى!

* * *

أنادى عليك..

وألمس نبض الصدى، والمدى، كاسيا وجنتيك

وألمس نبض اشتياقى إليك

وأدنو..

أمد إليك اليدا

لترتاح طيعة فى يديك..

ويرتجف اللمس، ترتجف اللحظة الباهرة

وترتجف الومضة العابرة

وترتجُّ حتى الخلايا

وحتى الضلوع البعيدة خلف الحنايا

ويهمس شئ دفين الحكايا..

أنادى عليك

فترتسم اللحظة الشاعرة

ويسطع وجه الزمان ويشرق صدر المكان

وتدنو..

وأدنو..

وتلتحم الخطوتان

ويغتمض الحلم.. يسكب فى مقلتينا الأمان!

* * *

أنادى عليك..

وأنت ضيائى الذى لا يغيب ولا يغربُ

أنادى عليك

وأنت الصدى العذب.. لا يكذبُ

أنادى عليك

وأنت ربيعى.. وكأسى التى أشربُ

أنادى عليك..

وأنت رحيقى الذى لا يفيض ولا ينضبُ..

أنادى عليك..

وأنت قريب، كنفسى منى، بل أقربُ!

موعد مع النجوم

من أى ساحات الخيال جئتَنا..

من أى أرض، ثرة الأفراح والأشواق

غمَّرتَنا سحابتين من رضا

وموجتين من شجون

يا مخصب الأيام باللحون

ودافق الحياة فى العروق

أما شهدت فرحنا

لضمتين.. قبل طرقة الفراق

ورشفتين..كل رشفة مذاق

وخطوتين.. كل خطوة عناق

من أى ساحات الخيال والجمال جئتنا

يا حلمنا القديم.. يا عزاءنا

يا فرحنا الجديد.. واحتواءنا

لكل ما فى الأرض من مواكب الحنين والسلام

لكل زهرة عبيرها يعطر الأيام

لكل دفقة ندية كأنها ابتسام

يضىء فى شفاهنا !

* * *

تسوخ فى الرمال، فى متاهة الثرى أقدامنا

لتشهد الحياة أنت

نُبحر ما نبحر فى مرافىء المحال

لتلمس القرار أنت..

وتحضن الشاطىء والأصداف واللآل..

نطالع المساء، تائهين ، عاريين فى القفار

لكى يضىء فى عيوننا شعاع مولدك

وتستدير فى جباهنا حمرتك المرنحة

ويملأ الوجود من عطائك الفريد

سحابة على المدى تظللنا

يا لهفة السنين فى أعماقنا

ودفقةَ الرجاء فى أحداقنا

إنا هناك، عند بابك الأمين

نشفق أن تصدنا..

مشردين، مجهدين غارقين فى السنين

فهل تضمنا رحابك الفساح؟

من لوعة القفار والبطاح

من ثورة الهجير والرياح

يا غامر الطريق بالأشواق والأفراح

وساكب الضياء فى القلوب والعيون

كأنه صباح!

* * *

على وسادة من السلام والأمان

يضمنا جناحك الرقيق

وملء أعين الرضا

تضىء قطرتان من حنان

وتنبتان فى الطريق

ثمار ما خضناه من عذابنا القديم

شعاع لحظة تحملنا على مشارف النجوم

تذكار موعد مضى..

من غير أن تضمنا يداه

من غير أن تُظللنا خطاه

لكنه هناك ملء خاطر السديم

مازال فى روائح العبير والعناق

ولحظة عميقة العطاء والأشواق

ومقلتين تنبضان فى الذهول والإطراق

لأنه موعدنا.. تذكارنا القديم

على وسادة من السلام والحنان والأمان

يحملنا..

يحملنا إلى النجوم!

وحدك المصير

من أجل لحظة وحيدة تضمنا

تاهت خطانا فى مسارب القفار

من أجل أن يفيض صفونا وأمْنُنا

راحت يدانا تطفئان زهرة النهار

وتصنعان من ظلاله دثار

يظلنا .. يدفئنا ..

الآن.. ليس غير مقلتيك.. أرتوى،

أعب منهما .. أطالع السنين

وليس غير صدرك الحنون مرفئى الأمين

يا صورة الهوى الأثير فى معالم العيون

من أجل لحظة وحيدة تضمنا

أسير.. ما أسير..

أعانق الفراغ والصقيع والهجير

لأن واحة ندية تطل فى يديك

وبسمة رضية تضىء مقلتيك

وموعدا يظلنى إلى القمر

من أجل أن يفيض صفونا وأمننا

وجدت حلمى.. واقعا مرفرفا لديك!

* * *

أكلما خطوت كان فى اتجاهك المسير!

يدفعنى الحنين والتذكار والشعور

تشدنى يد خفية إليك

أكلما خطوت خطوة.. وددت خطوتين

فخطوة تحملنى.. وخطوة إصرار

لعلنى أراك، أنتهى لساعديك..

الآن.. هل أقول ما أريد أن أقول

مادام ملء قلبى وجهك النبيل

يا وجه أيامى المضمخ النضير

أكلما خطوت كان فى اتجاهك المسير

ألست وحدك المصير!

* * *

غنيت للأشواق قبل موعد الأشواق

وقبل ساعة تظلنا كأنها عناق

أجمل من عين الخيال موعدُك

أروع من وعد السنين وجهك الوضىء بالنغم

أخلد من كل اللحون ما تقول أنت

يا مسكرى من دفقة الرحيق

سحابة العطاء فى يديك

تفيض، تغرق الحياة من حنانك الوديع

وموكب النعيم أنت..

ظلاله، أطيافه، تمثاله البديع

أروع من عين الخيال نفحة تنوّر الطريق

تغمرنى..

تشد أنفاسى

فهل تُرى أفيق؟

أكلما خطوتُ كان فى اتجاهك المسير؟

ألست وحدك.. المصير؟

فى كلمات

هل تطفىء غلتنا الكلمات!

هل تملك أن تحملنا، أن تجمعنا..

أن ترويـنا فى لحظات

هل تملك أن تدفئنا؟

ما عادت تسقى شفتينا..

ما عادت تكفى قلبينا..

ما عادت تطفىء هذا العطش المسعور

هذا الشوق اللافح، هذا القلب المبهور

تتركنا نعثر فى خطوات

تتركنا بضعة آهات..

نغفو.. نصحو..

ماذا فى كفينا!

ماذا نملك أن نعطى!

عمران اتحدا فى كلمات..

* * *

لا،

ليس سواك يعيد النور لعينيّا

لا غيرك، يسكب طعم الراحة فى كفيا

يحملنى فوق جراحاتى ، فوق شتاء الزمن المقرور

يغرقنى فى ومضة نور

يرجعنى للحلم الباهر، يكسونى دفئا وعطور

يملؤنى، يملأ أعماقى

يا عمرى الذاهب والباقى

فأريح سفينة أشواقى

وترف الدنيا .. وتدور!

* * *

ماذا، لو تمطرنى عيناك بألف سحابة شوق!

وأنا كالعابد فى المحراب بقايا توق

أرشف ما يسّاقط من ثمرات القلب

أُترع أيامى من نبع مسحور خصب

لو نملك أن نوقف يوما لحظات اللقيا

لتظل حوالينا ألقًا يكسو الدنيا

وجها مزهوا نشوان الرؤيا

لو نملك أن نوقف هذا الزمن المولع بالدوران

ليظل العطر بأيدينا يصّاعد من لمسات حنان

لو نملك، ماذا كانت تحكى العينان أو الشفتان!

عن واحة عمر عشناه والدنيا إيقاع أمان!

هل يملك أن يرتاح الرأس المجهد

فوق الصدر الحانى المسحور

بين يدين مضوأتين بعطر النور

هل يملك أن يرتاح العمر الأسعد

عند شعاع الوجه المنضور

يا فيض عطاءٍ.. لا ينفدْ

هل تملك أن ترتاح الأنفاس الحرى

عند سكون الضوء الهامى فى عينيك

عند أريج العطر الغافى فى شفتيك

عند رنينْ اللحن السابح فى قدميك

هل يملك أن يرتاح القلب الدامى

هذا المفتون المشدود الأوتار إليك

فمتى.. يا حبى، يا قلبى، يا وهج الدفء

يا نبع حياتى، وصلاتى، يا ألق الضوء

هل تطعم عمرينا الآهات..

ونظلُّ حيارى فى خطوات..

ونذيب الدنيا فى كلمات!

لماذا..

لماذا : كلما اعتنقت على شغف سواعدنا
وضج الشوق فى دمنا، ينادينا، ويدفعنا
وأغمضنا عيونا أُشعلت فيها رغائبنا
وكدنا نلمس الأحلام، كدنا نعبر الدنيا
طليقيْنِ من الأسر الذى كم قيد اللقيا
وأوشكنا نرى بالعين ما رفت به الرؤيا
الى شىء فـفاجأنا.. واجهدنا ، واطفأنا
وباعد بيننا حينا، وفرق بيننا زمنا

ورحنا نرقب الأيام أن تأتى فتجمعنا!

* * *

لماذا: كلما اقتربت من المرسى سفينتنا
وأوشكت الرؤى ترتاح والدنيا تعانقنا
وقلنا نحمل الأشواق والأحزان والذكرى
نوسدها إلى صدر يهدهد نارها الحرى
أتى شىء ثقيل الخطو بدد ما وهمناه
وغاضت لحظة الصفو الذى كنا صنعناه
وعدنا نسأل الأيام عن حلم فقدناه
وفى أعماق أعيننا التى احترقت رأيناه

* * *

لماذا لا أرى إلاك فى صحو وفى حلم
وأنّى فتّحت عينى، وأنى طوفت قدمى
فأنت سحابة الأشواق والأفراح والنغم
وأنت الجنة المعطاء تغمرنى عطاياها

وتنضح ملء أيامى أطايبها ورياها

وتحملنى على أفق بعيد الضوء كفاها

لماذا تطلق الأسرار من شفتىَّ عيناك؟

لماذا لم تعدْ دنياى إلا بعض دنياك؟

فهل يكفى إذا ناديت ملء العمر: أهواك؟

أنـــا.. أنـت

من جـــديد.. تعـــانقت أيدينا

وارتعـــشنـا جـــوانحــا وعـــيـــونا

وابتسـمنا من بعد طول التـأسى

ونســينا وجـه الحــيــاة الحـزينا

بعـــد مـــا دارت الليـــالى علينا

فـــغـــفـــرنا عـــذابهـــا والأنينا

وعـــرفنا أن الهـوى يا حـــبـــيـبى

لم يزل نابضـــا كـمـــا كـان فـيـنا

* * *

فـرقـتنا الأيام شـرقـا وغـربا

وشـربنا الفـراق مـرا وصـعـبـا

مـا الـذى كـان كـامنـا فى الحنـايا

أيقظ النـار فـى الفـــؤاد قلبى

قـد رسـمنا عـلى الطـريق خطـانا

كـيف يمـحـو الزمـان خطـوا ودربا

وأرانـا عـلى المدى يا حـبـيـبى

يحـتـوينـا الضنى فنـزداد حـبـا

ذاكـــــر أنت خـطـوتـين	يـوم كـنـا كـطـائـريـن
نـقـطـع الـلـيـل بـالمنـى	نلمس الـفـجـر باليـدين
وأنـا أنـت، والـهــــوى	قـبلة بين عــاشـقـين
إن تكن غـــبت مـــرة	فـــأنا ذبت مـــرتين

من جـديد .. وأنـت زادى وذخـرى

وصـدى خـافـقـى، وواحـة عـمـرى

والليـالـى التى تقـضـت سـراعـا

بعض قلبى، وبعض نفسى وفكرى

وحدّتنا الأشــواق حــتى غــدونا
طيف حب، فكيف تصبح غيرى!
أنا حــسبى أنى وضــعت حيـاتى
بين حـضن الهـوى وسلمت أمرى

* * *

المواعـــيـــد والـفِكَــرْ والحـكايات والســـهـــر
والعــهــود التى جــرت بيننا، يشــهــد القــمــر
كلهـــــا الآن، لم تـزل تملأ الســمع والبــصــر
قل لمن بـات مــــثلنا طــابـت الـكأس والـوتـر

من جـــديد ندقُّ بـاب هـوانـا
ونـرى الكون عــشنا وصــبـانا
ونعــيــد الحــيـاة حلمــا نديا
مــثلمــا كـانت الحــيـاة وكـانا
من جـديد يعـود صـوت الأمـانى
وتعـــيـــد الدروب وقع خطانا

كيف أنساك يا تميمة عمرى

سر عينيك يقهر النسيانا

لا تقل كان وانقضى   إنما نحن ما مضى

نحن ذكرى توسدت   خافقينا فأغمضا

وغدٌ مشرق الخطى   يغمر العمر بالرضا

يا حبيبى.. وأنت لى   ما الذى يفعل القضا؟

أنا إليك

أنا إليكِ، مبتداى، حاضرى، نهايتى
أشعلتِ أيامى، فصارت نارها حقيقتى
فإن سُئلتُ عن هواى هذه حكايتى
ندية كوجهك المليءِ بالطفولة
رخيمة كصوتك المنساب فى سريرتى
عميقة كعطرك الزكى فى حديقتى
حسبى على طول الزمان، أنت، يا حبيبتى

* * *

لو نجمة تنير لى، لو كان يهمس القمر

بأن موعدا لنا، نسرقه من القدر

فلنتطلق أنفاسنا.. وشوقنا الذى استعر

وليحمل النسيم بوّحنا الشجى إن عبر

ولتسترحْ عيوننا.. فى واحة مدى البصر

يا كم تشاكينا،

ظمئنا،

ثم أقبل المطر!

* * *

سيشرق الصباح يا حبيبتى، سيشرق الصباح

فليسكت الأسى الذى أظلنا، ولتسكت الجراح

اليوم لا مكان للدموع فى عيوننا، ولا نواح

إنا معا على المدى، يظلنا معا جناح

ما دمت ملء خافقى، فألف أهلا يا رياح

كلمات لا تنسى

لو عــدنا نقطف حلمــا كــان يضىء ليــالينا

ونلملم أفــراحــا كــانت فى الغــيب تنادينا

وخطونا عــبــر الآفــاق وراء الأمــســيــات

لو ســرنا يا دنيــاى ، وديعــين، وأليــفــيْنِ

لأضــــاء الكون على عــينيك، وفى عــينى

* * *

كلمات تولد فى الشفتين، وتغفو فى أعماق القلب

كلمــات تصنع أيامى، تكشف لى أبعــاد الغــيب

تحكى لى ما طعم الشكوى، ترسم لى لون الأشواق
والصمت يظلل روحينا، والفرحة تغفو فى الأعماق
ونروح نغيب مع النجوى، وتهدهد سمعينا الهمسات
كلمـات سكنت فى قلب لن ينسى دفء الكلمـات

* * *

يا أمـــلا غـــاب، وعـــاد يقـــود خطانا للأنوار
يا أمــلا، أيقظ أنفــاسى، توّج عــمــرى بالنوار
أنا بين يديك أدير الفـــرحـــة فى عـــينىّ
ويرف نداء الحب الراعش فى شـــفـــتىّ
عـــام ســـيـــمـــر، وتمضى أعـــوام ودهور
وهوانـا، فى أفق الدنيـــا، عطر منشـــور

* * *

هل تذكرين

إذا رن صـوتك فى مـسـمـعى
وطـوّف فـى الـعـالم الأوسـع
رأيتـك فـى كـل شـىء معى
وأطرقت أصـغى إلى هـمـسـة
تـرفـرف فى خـافـقى المولع

* * *

بأعـمـاق عـينيك أبصـرت حـبى
وأبصـرت واحـة أمن وخـصـب

تفجر دنياك فى خاطرى
ترانيم شوق توسّدن قلبى
فيا طائرى الحلو، عيناك أفقى
وخطوك لحنى، ودربك دربى

* * *

غداً.. سوف يعبر يومى غد
وتمتد خلف رؤانا يد
تطوّق أيامنا بالحنان
ليجمعنا فى غد موعد
ويرتاح قلبى إلى شاطىء
يطوّف فيه الهوى الأسعد
غداً.. إن عش هوانا غدا!

* * *

سأذكر بارقة من حنين
أضاءت بقلبى فراغ السنين

وأذكر موجة حب دفين

تداعب أحلامنا كل حين

وتطفو على صفحات العيون

سأذكر ما عشت، هل تذكرين!

ياطـائرى

لمـاذا .. لمـاذا نفـضْتَ يديـك!

وكنت عـبـرت السنين إليك

وطوقت عـمـرى بالأمنيـات

ووسـدت حـبّىَ فى سـاعـديك

لماذا .. لماذا حطمت العـهـود

وصنع يدىّ، وغـرس يديك

فكم ليلة عـشـتـهـا فى رؤاك

يغـازلنى الضـوء من مـقلتـيك

وكم ســاعــة طرت فى همـسـهـا

وعــانقت وهمىَ فــى راحــتــيك

أعــــانق فى الأفـق أحــــــلامنـا

وأغـــرق عـــينىّ فى ناظريك

وأشــدو بهـمس هوانا الكبــيــر

لـيــصــبح لحنا على مــزهـريْك

وكـنـت، وكـنـا، وكــــــانت لـنـا

ظــلال، وعــش حـنــون، وأيــك؛

لماذا .. لماذا نفضت يديك!

* * *

أتـذكــر مــجلسنا فى الأصــيـل

ولـون الـغــروب على وجنتــيك

وقــولك لى، والنـســيم الحنون

يزيد اشـتـيـاقى ووجـدى إليك:

بأن الـزمـان سـيـمـضى ويمـضى

ويبـقى هوانا كــبــيــرا لديك

وكنت هواى وكانت خطاى

ترى واحة الأمن فى شاطئيك

فيا طائرى.. كيف غاب الشعاع

وكنت قطعت العهود عليك

لماذا.. لماذا نفضت يديك!

على المنحدر

مـا عـاد يجـدى أن نلوم القـدر

تـطـايـر الحـلـم، وجـف الـوتـر

عند اصطفـاق النهـر أحـلامنا

لمّـا تـزل فى مـهـدها تنتظر

أغـمـضت عـينىَّ، وفى خـاطرى

حلم الريـاحـين بفـيض المطر

أطفـو مع الذكـرى، على سـاعـة

كـانت لنا مـثل خـيـال عـبـر

وأســـــبق الماضى، إلـى واحــــــة

لــم نــدْرِ فيـهـا مـرة مـا الحــذر

يـا حـلـمـنـا، لا تمض، يـا حـلـمـنـا

يـا عــــــشـنـا، لم يـبـق مـنـا أثـر

فى خــاطـر الأمــواج مــا ضــمـنـا

همس، ومــــا رفّــت علينا ذكــر

المعــبــد الخـــالى، ، وجــدرانـه

هـذى ليــالينا عليــهـــا صـــور

نـخطو بعـــمـــرينا إلـى فــرحـــة

فى الشاطئ الغـافـى وراء النَّهَـرْ

ونمـلأ الأيـام مـن غــــــــبـطـة

كـانت، وأصـبـحنا على المنحـدر!

لن تفلت الذكـرى، وفـى خـافـقى

نبض عـمـيق الأسـر، بـاقى الفِكَر!

واحة عمرى

شفتاى وعيناى نداء	يا أعذب لحنٍ وغناء
أدعوك، فتشرق فى قلبى	صفحة أيامى البيضاء
وأراك وضيئا .. ومطلاّ	فى عين جميع السعداء
وحدك، تملك أن تحملنى	فى عينيك لألف سماء
أن تجعل أيامى قبسا	من أمل حلو، ورجاء
وحدك تملك أن تدفئنى	من وهم صقيع وشتاء
وحدك، لا غيرك، يعرفنى	يعرفُ آلامى الخرساء
يدرك أيامى ذائبة	كبقايا ضوء فى الماء

* * *

عـينـاى إليك بـأغنيـة ويداى تـرانيـم دعـاء

وخطاى كـأنام عـبـرت من فـرط حنين وحـيـاء

والشوق الـغـامر يجـرفنى يـملؤنى شـلال ضـيـاء

يا أروع من كل خـيـال عـرفتـه عـيون الشـعـراء

وجـهك! يا أخلد أطيـافى واسمك، يا أحلى الأسـماء

أنا بين يديك، فهل أحلى أو أشـهى حلمـا وعطاء!

* * *

ناديتك فـارتعـشت ذكـر وتهـادت أطيـاف مـسـاء

وانطلقت أمنيـة ظمـأى وازدهرت حـتى الأشـيـاء

يا واحـة عمرى هل يكفى عـمـر مـوصـول بلقـاء

لأقول أحبـك.. يا قـدرى يا وجه حياتى الخضراء!

سمعت عينيك

سـمـعت عـينيك.. ومـا قـالتـا
سمعت كل الهمس خلف الجفون
وارتعـشت كـفـاي فى لمسـة
أودعـتهـا حـبى وسـرى الدفـين
أيقظت فى نفـسى دبيب المنى
أشـعلت فى قلبى نداء الحنين
عـيناك.. لم أشـهد سـوى مـرفـأ
ترسـو عليـه سـفن المتـعـبـين

يا فـتـتنى نامى على خـافـقى

لـن تهـدأ الأحـلام للسـاهريـن

من خلف شـبـاكك، هذى يدى

لبـلابة تسـعى، فـهل تمسكين!

وحـول مـصـبـاحك.. أنشـودتى

حـملتهـا لحن حـياتى الحـزين

وبـيـن أنفـاسـك يا زهـرتـى

أسندت أنفـاسى إلى يا سـمـين

من يرجع اللحظة! فى خـاطرى

أصـداؤها تبـقى، وتبـقى سنين

أعـود يا دنيـاى، فى خـافـقى

همس، وفى سـمع حـيـاتى رنين

ضاع فى الزحام

وأننى هزئت بالوعود،

وبالعهود، والهوى العميق

وأننى دفنت كل شىء

فى أمسىَ الرهيب، كل شىء

وأننى بداية مهينة

لموكب رهيب

وقصة حزينة.. حزينة

لعالم كئيب

يخوض فى الوحول، كالوحول

فأين راح حبنا العميق

وكيفِ جف ذلك البريق

وانهارت الجدران والشقوق

واصطدم التيار بالغريق!»

* * *

لسوف نغدو قصة كبيرة

كبيرة لأنها حياة حب

ومرة لأنها شباب حب

وحلوة لأنها قصة حب

وتنظرين أنت فى أسى مهين

إلى الوجود من خلال قصتى

فتلمحين فى الضباب هذه السنين

وهن يزحمن مشارف الحياة

وهن يخنقْن الحياة فى الشفاه

وهن يبكين الوجود.. تلمحين

قصة عمرينا معا.. بلا حدود

أتعرفينها! مضت بلا حدود

وفى دموع مرة الأنين

ستبغضين كل حب

وتحسدين كل قلب

وتصنعين ألف رب

الكل عُبّادٌ لحسنك المهين

الكل أقزام،

وسوف تصنعين

من الأسى الكابى، حكاية لنا

حكاية تموت كل يوم

لأنها تعاد كل يوم

لأنها لنا معا؟

وسوف ترقبين يا أميرة الغد

بلا تردد

كل ذليل خاشع ببابك الوحيد

كل إله مطلق تشوقه القيود

لسوف ترقبين كل تائه يعود

وكلّ أحمق يرود

وعند ذاك يا أميرة الغد

ستصفعينه. . بلا تردد

وتنفضين فيه جرحك القديم

وثأرك القديم

وكبرياءك القديم

وعرشك الذى هوى مثل الغيوم

لسوف تحقدين

وتنطوى السنون يا صديقتى.. تغيب

وأنت لا تدرين ما حقيقة المغيب

ولا طبيعة القلوب

وأنت لا تدرين

من صانع الأسى، وعاشق الذنوب

لكنها حكاية كبيرة

من قبل أن كانت عهودنا ووهمنا الكبير

وحبنا الذى ثوى بلا ضمير

* * *

صديقتى

كان لنا ألف خيال

فى قريتى الصغيرة

وألف توق وارف الظلال

إلى المدينة الكبيرة

كانت أمانينا الصغار تلتقى

هناك، فى زحامها العجيب

وسحرها العجيب

وناسها الذين يسكنون فى القصور

ولم تكن نحن نعيش فى القصور

فقريتى أناسها بلا قصور

وكم حلمنا بالعجائب الطوال

واتسعت أحداقنا لكل ما قيل وما يقال

عن هذه المدينة الكبيرة

مدينة النساء، والعبيد، والحشم

مدينة الكبار والقلاع والقمم

مدينة بلا ألم

بلا سأم..

وفى مدينتى الكبيرة

عرفت يا صديقتى معنى السأم

معنى الضياع

وذقت يا صديقتى شوك القمم

شوك القلاع

وغبت يا صديقتى مع الظلم

ولا شعاع..

ورفقتى معى يلوكون الخراب

وينظرون للتراب

ويهزأون بالحياة والوجود والتباب

بكل شىء

غابوا مع المعركة الكبيرة

معركة الضياع خلف شارع كبير

تصب ضفتاه فى القبور

فى كل شبر منه ألف سور

وألف لعنة تراق

ويبدأ الفراق

ليبدأ المسير والطواف من جديد

لكننى صديقتى عرفت كل شىء

عرفت أننا نساق

وأننا نشد فى وثاق

وأننا عبيد ليل

ليلٍ كقبضة الفراق

مسيطر كقبضة الفراق

لكننا ـ صديقتى ـ نسير

وينتهى المسير والرفاق

* * *

وجئت يا صديقتى كلؤلؤة

فريدة كلؤلؤة

وحلوة كلؤلؤة

أطلعها الغواص بضة العقيق

من عالم مغيّب سحيق

عالمك المحجب العميق

وجئت يا صديقتى لعالمى الجديد

رعشة حب

دفقة حب للحياة

ويومها عرفت ما حب الحياة

والحرص يا صديقتى على الحياة

على لآلىء الحياة

لكن درتى عظيمة الألق

أحسست فيها رعشة القلق

وأنها ستختنق

فى عالم غير محيطها الكبير

وقبضة غير بساطها الحرير

ورحلة تجود بالرمق

وحار غواص البحار خلف عالم رهيب

يداهُ تقصران دون حلمها الكبير

يداهُ تقصران أن تمهدا الحرير

وتغرسا الوئام والسرور

وتُنبتا الزهور

وتنفضا العبير فوق هذه القفار

لأنها قفارا!

* * *

صديقتى

لسوف نغدو قصة كبيرة!

كبيرة لأنها حياة حب

ومرة لأنها شباب حب

وحلوة لأنها قصة حب

وسوف تصنعين

من الأسى الكابى حكاية لنا!

حكاية تموت كل يوم

لأنها تعاد كل يوم

لأنها لنا معا .. لنا

يـــارا

وتضحكين فى وجوهنا، فتفتح الحياة

أبوابها،

وتمطر السماء

أفراحها،

ويملأ الشعاع وجه بيتنا الصغير

فتشرق الألوان، والفصول، والدروب

وتدفق القلوب،

---

* يارا: ابنة الشاعر

بلحنك المجنح الوثير

تميمة على الشفاه،

ونبضتين فى صلاه:

يارا

* * *

وأنت حولىَ، تقفزين، تمرحين، تعبثين

وتخطفين كل مقتنى، وتهربين

وتطلقين ها هنا، وها هنا، أغرودة الطفولة المزقزقة

وملء عينىّ ظلال الضوء، والتذكار

خيوطها تمتد، تنسج الأمان والأشعار

ألمح فى عينيك وجه أمىَ الذى ودعته قبل سنين

وعاد لى من رحلة الزمان، حانيا، مؤانسا

وحين أحتويك، تهتز الضلوع، ترتجف

يسيل شىء من عيونى المطرقة

ينساب شىء فى مسارب الحنايا

وتصبحين يا ابنتى، أمى، ويدفق الحنان

سحابة من الدموع والشجون والرضا

وتحتويك مقلتاى،

ثم يغفو رأسك الصغير،

تستدير فى وداعة يدايا

ويشرق النهار يا صغيرتى،

عيناك لى منار

عيناك لى مرايا..

* * *

هل جِئْتِنا فى الزمن القبيح، كى نساير الزمان؟

ويصبح الوجود، فاقد المعنى، حياة مفعمة!

تتفتح الدروب فى وجوهنا، ويشرق الأمل

تمتد رحلة الحياة، نكتوى بحسبة السنين والأجل

وتسبق الخُطى، أحلامنا الصغيرة المنمنمة

من أجل يومك الجديد،

عمرك المديد،

يا ملاكنا الفريد..

فلتتسق من إصبعيك ـ عندما يراقصان اللحن ـ أغنياتنا

ولننطلق من بين لثغة الحروف فى شفاهك الكرزية الألوان أمنياتنا

وليندغم فى فيض حجمك الصغير فيض حبنا الكبيرُ

وليأتلق فى هزة الإيقاع من يديك، من قوامك الطفلىِّ، لحننا المسترسل السعيد

يكسو شتاءنا دثارا

ويُلهم الأمان والأشعارا

يـــارا..

فى انتظار مالا يجىء



الرحلة في بحار العشق

- تسافر؟

- هذا زمان القرارِ

زمانُ الذين يروحون لا يرجعونَ

زمانُ الذين يقيمون لا يبرحونَ

زمانُ جميع النوايا

فعجّل

وخلِّ الطريق وراءك،

إن الحبيب أمامك، إنّ الظلال تشيرُ،

الأصابع تمتدُّ، هذى المطىّ تسيرُ،

وهذى البطاح تسيلُ بأعناقها،

وتدبُّ الحكايا

- تظل قعيدا؟

تسائل صمت الرمال، تحاور صوت المحال،

وبينكما خطوةٌ فاخطها، قبل أن تفسُد الأرضُ،

يختنق الكونُ حولكما بالرّزايا

وتشتبك الرّغبات بخيط المنايا!

* * *

حين اختفى وجهك عن عينى انتحيتُ جانبا

افردتُ نفسى جذّع ذكرى موحشة

اغمضتُ خاطرى

لعلنى أراك فى قرارة الحزن المباغت العقيم

تمدُّ لى يدا

أسندت راسى واتكأت، آه! هل أعودُ خائبا!

أخاف أن تشدنى إلى الثرى ذراعُ يومنا

وكانت السماء

توشك أن تهمّ بالبكاء

والأفق الموشّحُ الإزار بالشّجى يسيلُ ذائبا

يسيل فى دمى يسيل،

تطفو فوقهُ رفاتُ عاشق قديم

مخضب اليدين بالدماء!

الآن ياملاذىَ الوحيد فى الزحام

أعرف أن يومىَ الكئيب مر فارغا

وأننى بحثت عن عينيك فى جنازة الغروب،

فى إطلالة المدى

وأننى يشدنى السكون للجنون.. للردى

أصيحُ من قرارة البئر التى تشدّنا:

«ياحزّننا، ياحزننا العظيم

أما كفى مانحن فيه؟»

لايجيبنى صدى!

العيبُ فينا نحن؟

أما زمانِنا،

أم عيبُ عمر ضاع فى دروبنا سدى؟

* * *

ها أنتِ!

رقّةٌ كما النسيم، وارتجافة تزلزل الخلايا

وشاطئ منوّر بدا،

بدا وغام فى الضباب،

غاب فى تلفت الأسرار والخفايا

قادمة،

عاتيةً خطاك،

بركانا يفجّرُ الضلوع والحنايا

هاأنت!

والتقتْ ـ برغم عبئها ـ أزماننا

تصادمتْ أقدارنا،

تناثرت جسورنا شظايا

ولم تزل عيونُنا الغريبةُ الأطوار، تثقبُ الظلامَ

تقتفى سبيل كوةٍ إلى النهار،

تلطمُ الجدارْ

وتلتقى مهزومةً فى صفحة المرايا!

* * *

يا محبوبى

وحدى، بعدك، أعبر هذا الليل الموحش،

أجتازُ الفجر الكاذب، هذا الوجه الممرور من الدنيا

أعدو نحو شعاعة وعد من عينيكَ

وأنهلُ مايسّاقط من فيض الرؤيا

فامنحنى بعض أمان حين أطير إليك

أسألك بحقِّ الساعات المخنوقة بين الجلوة والإطراقْ

اكففْ عنى ظمئى

واحللْ عقدة بوحى

حين يخفُّ القلب إلى عتباتك، يجثو

ويلامس موطئ قدميك

ويحلمُ،

يحلم أنا نتساقى خمر اللقيا

ونُحلقُ مزهوّيْن

فلا تملكنا تلك النشواتُ المطروقة

أسألك بحقِّ اللحظات المخنوقة

بين الرغبة والإشفاق

ها، خذْ بيدى

فأنا طوفتُ طويلاً، ياكم شرَّقتُ وغرَّبت

يثّاقل فى صدرى مكنونُ محبتنا

لايقوى جَلَدى،

فاحملْ عنى هذا العبء المستور

غُفرانك قد وقع المحظور

تمتمتُ بذكرك فى خلواتى

وجهرت بحبك فى صلواتى

وأبحتُ السرَّ برغمى، فارحمْ ضعفى واستر زللى،

فأنا المستغرق فى ذاتك

فى فيض صفائك وصفاتك

فى عسجد هذا الملكوتْ

أفتح عينىَّ، فتعشينى أقباسُ النور

أترنّحُ، ياويلى، ثملاً، وأظلّ أدور

وأنا مبهور!

حال من العشق

يغشانى وجهك حين تطلُّ علىَّ،

فأعرف أين مكانى!

أتعثر مرتبكاً

وأحدّق - لاتقوى عيناى -

الفيضُ الباهرُ يغرقنى

أتضاءل منجذباً لشعاع الرحمة منك

لهذا الأفق السمح النورانى

وافرحى حين أعاينُ نجم السعد

وحين أطالعُ فجر الأنس

وحين يداخلنى زهوُ الرؤيا فأغادر جَلَدى

أغفو

أستيقظُ مرتاعاً،

أتحسس قدرى عندك.. أسألُ عنى، واخجلى

آهٍ من ضعفى وهوانى!

أحرقتُ سفائن أيامى

وأتيتك خلواً، عريانا

إلا من شملة أحزانى!

* * *

أواه من بعد الديار واستحالة المزار

ياأيها المسافرُ الوحيدُ قفْ!

فالأرض غيرُ الأرض، والزمانُ خانَ

غادر الأحبابُ،

صار الناسُ غيرَ من عرفت، فاسترحْ..

تداخلتْ مواكبُ المودعين، والمشيعين،

والمنافحين عن بقاء لحظة من المرح

قد آن للعجلان أن يُطامن الخطى،

ويستردَّ من ذَماء نفسه بقية مضعضعة

فليس فى نهاية الطريق غير هوّة الأسف

وللغريب أن يئوب بعد رحلة الشتات والدمار

مغامرا، بلا هدف

قد آن للظلام أن يبدد الأسداف عن صدورنا

ويرتحل

مشيّعاً بألف لعنةٍ

وألف طعنة تدمى بها الأكفُّ، ترتجف

ويقبل النهار!

* * *

أرفع وجهى فوق الموج الطّاغى،

أسند أنفاساً، وبقايا لون مذعور،

ودم هارب

ماذا لو أغرقنى الموج، انهالتْ فوقى سافيةُ الرمل،

التاثتْ ذاكرتى فى عدم الرؤيا

هأنذا أقتربُ من الصحو، وأصغى

تترددُ حولى أشجانُ الدنيا، أصواتُ الباعة،

آلاتُ العصر، وأصداءُ الثكلى والنائحة المأجورة

فلمن أصغى؟

أتسمعُ..

ـ هذا صوتٌ لايهدأ حتى ينبحْ

أتسمعُ أكثر ـ

ـ هذا صوتٌ تخنقه التخمة

أتسمعُ أكثر، لكنى يعوزنى الفهم الناصع

ـ هذا صوتٌ يعتادُ ركوب الأصوات الممرورة

حتى يبدو دوماً فى قلب الصورة

صوّت الأصوات، وقربان المذّبح

يامنْ تصفون معى، تبكون معى،

وتعودون لجمر مضاجعكمْ فى الليل، معى

تكفينا هذى الجرعةُ من بئر الأحزان

يكفى ماقدمنا من ماء الوجه، وما

أسلّفنا من عطش الروح، وما

أذلّنا من كبرٌ الانسان!

* * *

يتكاثف وجه السحب، وتهوى دائرةُ الظلمة

وتحينُ الساعاتُ الجهمة

ياربىّ

هذا وجهُ العالم، فوق عبادك، يُسقط حُممه

والطرقُ ازدحمتْ

ومسالكها تبعدُ عنا، تستعصى،

تَخفى عن أعيننا حتّى نتضاءل منكمشين،

ونصغر منهزمين،

وهانحنُ أولاء تصاغرنا حتى هنّا

وأتينا بابك ملتمسين، ومحتسبينْ

فارفع مقتك عنّا،

وامسح بيد الرحمة وجّه خطانا وخطايانا

ها نحن صغارٌ فى كنفك

فى كنف العزة نرقد مؤتزرين خيوطاً من نور

والفيضُ الأسنى يغمرنا،

إذْ يغشى السّدرة مايغشى

وبعيداً، حيث يطوفُ النورُ،

ويمضى فلك دوارُ السقيا

تبزغُ نجمة

ما زالت حيرى مضطربة

تسبحُ فى الذرّ،

وترقبُ أحوالَ الدنيا!

اعترافات العمر الخائب

عندما يجتاحنا الحزن الرمادىُّ

ونقعى فى زوايا القلب، مكسورين،

نجترُّ الحكايات القديمة..

الأسى الفارع يستيقظ من بين الدهاليز،

ويصحو وترُ الشجوِ،

الكتاباتُ التى جفت على الأوراق،

كانت ذات يوم صوتنا العالىَ

لفحَ الشوق،

والرؤيا الحميمة!

خرجتْ منها وجوهٌ، لفّعتها دورةُ الأيام،

شاخَت فى كوى النسيان،

تحكى وجه بومة!

فى الجدار الأسود الشاخص، نرتدُّ،

وفى قاع العيون الجوفِ، نهوى،

نكتوى من لذعة الذكرى

ومن وحدتنا فى ليلنا العارى،

ومن هول انسحاق القلب،

من طعم الهزيمة!

* * *

ها أنا..

فى دورة الاعصار أرتدُّ عنيفاً،

خائبَ المسعى، أسيفا

وانهمارُ العمر من حولى،

خطى مبهورةُ الأنفاس،

فقاعاتٌ لغو زائف،

صارت على الوجه أخاديد، وفى القلب حروفا

سكنت همتك الشمطاءُ يانفسُ،

عرفتِ الأمر، جربت الذى كان،

تخطيت الزوايا والصفوفا

والمصلين - وراء الهيكل البالى - وقوفا

ها أوانُ الفصل،

بوحى، اعترفى،

لا تدّعى بعد عزوفا

واهتكى عنك ستار الرغبة الحبلى،

قناع الأسف الكاذب، ذاك المضحك المبكىَ،

ما عاد يفيدُ الصمتُ،

كوشفتِ،

وأُترعت من اليأس صنوفا

كم تطامنت،

وأسرعت الخطى عدواً،

وجاوزت حدود الوهم،

شارفت على الأفق ظلالاً قابمات ٍ وطيوفا

كم تبدلتِ قناعاً،

وتلبست خداعا،

وتواريت وراء الأمل الخلَّب،

سيفا!

ورغيفا

وصحونا حين طار العمرُ،

نقتاتُ الحصاد المرّ،

نهتز لمرأى الغدِ، إذ يفجؤنا عارين،

ننهارُ جراحا ونزيفا!

* * *

دائما أنتِ؟

تجيئيين سراباً خادعا

وجهاً هلامياً، رذاذاً ينضح الوجهَ

ولا يروى صدى القلب،

سحاباً يُسقط الظلَّ ويمضى

تاركاً فى وقدة الصحراء أنفاساً شحيحات عليلة!

دائما أنتِ!

أكاذيبى التى أعشق فيها الموت، طعم الغدرِ،

تُفضى بى إلى ساعة صفو مستحيلة

آه! لولاك،

لما امتدّ بنا الليلُ الخئونُ الوجه،

ما اجتزنا ـ وراء الوهم ـ

ساحات المراءاةِ الذليلة

آه! لولاكِ،

لما كان انحنى الجذعُ،

ولاهانت على السكة أعناق الرجال الشمِّ،

وارتاحت لَقىً

من غير حيلة!

وتعودين!

فماذا بعد فى الأيدى، سوى أعمارنا الفاغرة الأفواه،

جوعاً وظما

وطريق جمدت فيها خطانا، انتصبتْ فيها خطايانا

شخوصاً

مفزعاتٍ،

وتماثيل

استحالت ندما!

آه لو نرجعُ للصفو الذى كان،

لحلم كان فى أعماقنا غضًا،

طفوليا، برئَ السّمت

عذريًا نقيا

عندما..

* * *

عندما أرجعُ بالتذكار، أستدنى الذى فات،
أُجيلُ الطرف، ألقاكَ غريراً،
وضئيلاً، وقصيّا
حافياً،
تستلهم الأرض، طريحاً، نزق الأسمال،
خجلان حييّا
وأرى حولك غلمان الحمى، يستطلعون الغيب،
يستجلون فى عينيك سرا غامض اللمعة،
مشحوناً،
عتياً
يرحلُ العمرُ وئيداً،
تسقطُ الأعوامُ فى الهوّة،
يلتفُّ الصبايا حول ناى الحبِّ
تغريهن بالترنيم منضوراً فتيا
عاشقاً، طلق المحيا

يرحلُ العمرُ،

وتمضى سلةُ الأعوام لاتحملُ شيّا

يسقطُ السر، يدوس الناسُ،

ينهالُ الترابُ الصلد، يدنو القيدُ،

يهوى الناىُ ملتاعاً، شجيّا

من جديد،

ها أنا ألقاك فى عصف الذهول المرّ،

تجتازُ الفجاج السُّود، مخبولاً

شقيا

وبعينْيك سؤالٌ اخرسُ الدمعةِ،

مازال عصيّا:

ما الذى سدَّد فى قلبك سكيناً؟

وفى عيْنيك حزناً أبديّا؟

قبـل الوصـول..

أحاولُ الوصـول، دون جدوى!

أستمـرُّ لاهثاً، لعلنى! ولم أزلْ أحاول الوصـول

أطرقُ هـذا الباب،

أستدير يائسـا،

أعيدُ ما بدأت،

أستمرُ فى مخاضة الفصـول

ياويلتى!

هـذا شتاءُ الرغبة المرير قادمٌ..

وهذه خطاه فى المخادع الوثيرة المنمنمة

تئزّ حولى،

أصطلى نيرانها الثلجية الدبيب،

فى عروقى العارية المستسلمة

الآن لا مفرَّ

وحدك الملاذ لى،

وقبضة الشتاء حولنا عتيةٌّ، ومحكمة

تدفعنى إذا اتّأدتُ،

تستثيرنى إذا انتظرتُ،

ألمحُ الطريق موصداً

أعاودُ الطَّرّقَ لعلّ كوةً تلينُ ،

برقاً خاطفا يطلُّ،

علّنى أنجو من الدهشة فى العيون والفضول

هذا أنا..

وفى الطريق أنتِ لى

وليس ثمَّ من سبيل!

* * *

ماذا لو اننىّ خطوتُ، ما انتظرت أن يطلّ وجهكِ
الصغيرُ من ستارة الأحزان
أتيتُ دون موعد،
وربما بقيتُ عامدا،
أداورُ اللحظة، أستعيدُها،
ألح فى اجتياز هوّة المضيق بيننا،
وفى اكتشاف هذا العالم المدثر القناعِ،
خلف وجهك الغريق فى متاهة النسيان
مرتعشًا أتيتُ
يا مواقدَ الشتاءِ لا تكابرى
ويا عطية السماء لا تتاورى
فالرغبة الحبلى تفورُ،
فى تأهب الخطى تفورُ،

فأذنى، وأفصحى

كم اشتهينا ـ صامتين ـ جلوة النيران!

* * *

تظلّ قعيدًا تخور، أما رحل القومُ؟ ها أنْت

أُفردت وحدك هذا الظلامُ اللعينُ عبادةُ حزن

حواليك تزحفُ، تلتفّ، يقعى عليك وينشب

فيك أظافره الهمجية، مخضوبةً

بسواد النجيع، الظلام اللعين يعشش

ما زلت وحدك تلهث، أين المفر؟

أمامك هولُ الدروب، وخلفك:

ويلاه! ما زلت تنشدُ نجم السلامة!

«وها نحن بعد اللهاث وصلنا،

وبعد انقشاع غبار المعارك،

بعد انفضاض السبّاق، نعودُ لمالة كأس،

تشقق فينا هتافُ الحناجر، قطرةُ ماء تغيث الظماء،

تبللُ روحا تجفُّ، مثقّلة بانهمار السنين، لأنّ

الليالى حين تجئ، تجئُ حبالى يلدن الأسى

والقتامة!

«تظلُّ قعيداً

برغم امتداد الخيال الطليق

يجوب المدى والتخوم،

يشارف أفق النجوم،

ويرجع سأمانَ، قد غللّته الكآبة

وفى الصدر، من وخزات الرزايا... علامة!

* * *

أخلطُ بين اثنين: أنتِ والقدر

أسقطُ بين اثنين: أنتِ والزمان

هيهات أسترد بعض ما أضعتُ من براءتى

وبعض ما افتقدتُ من معابر الأمان

الآن لا أبصرُ من حولى سوى أسنة الحصار

مشرعةً تهتز فى الأيدى، يغوصُ ظلها،
يغوصُ فى عيون تقذفُ الشرر
كأننى أصبحتُ فى قبضتها خطيئتى
يهتزُّ حولى الآن كل شىء
الشارع المسدود، والمدى المطلُّ، والجدار
وفى انتظار منْ؟ ترى! لعلنى أهذى!
لعلَّ ماعرفتُ صار كافياً لراحتى
لعلّ مارأيتُ فيك يضمدُ الجراح، يهزمُ الشكوكَ،
يهدم الأسوار
واعجبا!
هانحنُ فى ملالة العزوف قبل لحظة الوصول
يرتعشُ الشتاءُ فى ضلوعنا
وتنحنى جباهنا المطفأة العينين..
فى ذبول!

فى انتظار ما لا يجىء

*

من كان وقتها بوسعه يرى

أبعد من مواطئ القدمْ؟

لكى يدلنا : ماذا تُراه فى غدٍ يكونْ!

ونحن فى دوامة الحنين والشجون غارقون

تلفحنا الأيامُ، نكتوى بصهدها وبردها

ولم تزل تموجُ زهوة الحياة فى عروقنا وتحتدم

---

* (إلى رفاق العمر، الذين احتوتهم القاهرة معا ، قادمين من الكفور والنجوع بعد ربع قرن: أكتوبر ١٩٥٢ . أكتوبر ١٩٧٧)

نسقط خائبين أو نقوم ظافرين، لايهم

محلقين فى السماء، أومضرجين فى الثرى

شعارنا فى رحلة الميلاد والوجود والعدم:

«الخبز والنبيذ ياصديقى العزيز

كلاهما لذيذ

فاغنمْ من العمر صفاء لحظة الحياة

مغموسة الأكتاف فى الكفاف

ولاتكن عبداً لوهم الذهب الإبريز»

ونحن فى الطريق، نمضغ الكلام والملالَ

نعبر السفوح والقمم

ونتشى وراء نجمة هناك فى البعيد تبتسم

تقودنا إلى الذرى!

* * *

نكذبُ، أحياناً كثيرة، أجل!

نكذبُ، عامدين، ظالمين،

علنا

نقنع يوماً غيرنا

بأننا،

ننطق بالحقيقة البيضاء، مانزال طيبين وادعين

برغم هذه الأظافر الطويلة المدببة

وهذه الألسنة الجارحة المدربة

وذلك اللهاث خلف عمرنا الملطخ المهين

هانحن أولاء، لكثرة الذى أريق من وجوهنا

ولاعتيادنا على مذلة السؤال، دونما ملال

صرنا نصدق الذى يقالُ

- فالجميع صدقوه -

وانكفأت على ظهورها الرجال

تطالعُ النجم، ترودُ حسبة الأبراج،

تقرأ الفنجان، تطلق الخيال خلف رحلة المحال

كأنما سحابة من الدخان والخدر

مبسوطة الجناح، تحمل الركبان

لرحلة فى اللا مكان

تطوى بها الأحزان فى قرارة النسيان

ويرجع الجميع غانمين، سالمين،

ومانزال فى انتظار شئ غامض،

قد لايجئُ

مانزال!

* * *

تُسلّمنا هذى الأكاذيبُ إلى العراء

نهرع، ياويلتنا نخفى عن العيون سوءة لنا

وفعلة، ذميمةً، نكراء

صارت مع السنين، جرحنا الدفين، وانكسارنا

لمّا تخاذلنا،

وغرَّنا مانحن فيه من تطاول على السماء

إيماننا ادعاء

وحبنا، أكذوبة، وجذوة اشتهاء

ولغوُنا

مرارة نسلمها أشعارنا

ياهذه الدنيا، وياهذى الأكاذيب المزوقة

تداخلى واستحكمى رداء

كى تسترى جسومنا، وعارنا

فى عرينا الفاضح،

فى وجوهنا الأسيفة الشوهاء

يا كم طوانا العمرُ سارين على دروب ليلنا ظلماء

نحلمُ بالخصب،

وبالنبع الذى نراه ماثلا أمامنا

حتى إذا ما اقتربت وشارفت أعناقنا

تهيأت لرشفةٍ باردة حلوقنا

وجحظت عيونُنا فى لمعة الأشياء

غصت بوقدة السراب،

وانطفاءة الرجاءِ،

وانطباقة السماء تحجب المدى!

ومن بعيد، حيث يقبل النسيم والردى

مازالت الأصداءُ

تترى، ومايزال يخفق اللواء

منتصبا فى محفل الصحراء!

* * *

هانحن فى دوامة الرمال، ما نزال

تسوخ فى شراكها أقدامنا

نحمل أحلاماً كسيرة مضعضعة

انفرط العقد الذى كناه، كم تناثرت حباته،

تفتت قلوبنا، ولم نعد معا

وشاختْ النبرةُ فى شفاهنا، وحشيةً عيوننا

مذعورةً خواطرُ الخريفِ فى رؤوسنا

يا أيها الشملُ البديدُ كم شهدتنا معا

مشردين، هانئين، حالمين، مقعدين

لكننا كنا معا

عمراً مديداً، حاشداً مضيعا

نصوغ هذا العالم، العبء الثقيلَ

نحتويه، يحتوينا، ضيقاً وأوسعا

نصنعُ من طقوسه مسلاتنا

ومن تناقضاته،

نقيم للزمان ساحة ومصرعا

وأينا الظالم والمظلومُ؟ لاندرى

ولانهتم أن ندرى،

ففى العمر مدى

وفى الطموح غايةٌ

وفى العقول جذوة لاتنطفئ

وهمةٌ ريفية التكوين لانظنها تلين

لانت،

ولِنّـا،

وانتهينا بدداً، مضيعين

معلقين فى خيوط العنكبوت، فى مدارج الرياح،

فى انتظار قبضة الأجير،

يائسين، شائهين

نرتجُّ فى جوانب الدنيا، ونمضى حاسرين

يحمل كلٌّ جرحه، فى قلبه ولا يبين

ولم نعد ندرى

أمنطق العزاء صمتنا المهين حين نلتقى

أم حكمة السنين!

بشرنا ثم تصوفنا

تنداح خيوط الليل، فتشرقُ طلعتك الوسنى

ياربى! حقا ماأبصر؟

قد عشيت عيناى ولكن هأنذا أتحسس دربى

أخطو،

هذى عيناكَ تدلانى، وتشدانى

عيناك النجمُ الثاقبُ ظلمة أحزانى

فأعاينُ بعد زمان القهر شعاعات الفجر الأسنى

عجبا، عجبا!

هذا صوت بالإنعام وبالبشرى يترضانى

تتثالُ دموع الوجدِ ويغرقنى فيض التحنانِ،

وأدنو منك،

أطالعُ فى عينيك شجونا تتصبانى..

غابت عمراً، واليوم تعودُ فتلقانى

عجبا، عجبا!

هذا لحنٌ بضروب الفرحة يسرى فى إيقاع زمانى

أجتاز سياج الوهم، أشير عليك فتدنو،

تلتصقُ الرؤيا

نصعدُ فوق تخوم العالم، نسبحُ فى الفيض النورانى

عجبا، عجباً!

من أطلق شعلتك الكبرى، لتشعَّ علىَّ وترعانى

فى هذه اللحظة من دنياى، ومن سأمى،

من قلب مراراتى ودخانى!

وأتيتَ لتفسد ما أمّلتُ:

سكونَ الخيبة،

صمت العزلة،

راحةَ مهزوم قد أغفى وطوتهُ ظلالُ النسيان!

* * *

لو نسألُ الزمانَ، ماالذى يقولهُ الزمان؟

ونحنُ أدرى بالذى نصوغ كل يوم مرة ومرتين

نحلمُ أن يجاوز التخوم فى غد، وأن يشارف الذرى

وأن يصير واحة وكوثرا

ننفخُ فيه من رغائب السنينَ،

من حصاد عمرنا المهين،

من تطلعاتنا

من زهونا المشبوب وانكسارنا

من جوعنا للمسة الأمان، وانتظارنا

للحظة مخطوفة تضمنا معا

ولم نزلّ أدرَى، برغم خشعةِ العيون فى الثرى

بما أصاب طفلنا الوليد بغتةً، فأوجعا

وعلق الأحزان فى الجدران!

* * *

هل تكفى فى العمر بقية؟

لنخوض معا فى الوحل المنشب فينا أظفاره

الوحل الأسود والمرصود ووحل الأنفس والنية

نقتلع معاً أوهام الناس وضعف الناس وجوع الناس

نخطو من فوق جسور الرعبِ،

نعيدُ إلى النهر المتكدر فينا تياره

وصفاء ملامحه الأولى

هل تكفى فى العمر بقية؟

لنقول وداعاً للأحزان، وللساعات المنهارة

ونعيد إلى الإنسانِ الذابل دفء اللمسة والأنفاس

والقلب المضنى.. وقد الجلوة والإحساس

ياكم جرّبنا وتعبنا،

أقدمنا ثم تراجعنا

بشرنا حين لمحنا ثمة شيئاً يولد،

لكنا حين رأيناهُ، وعرفنا وجه دمامته،

عدنا فعكفنا،

أغلقنا فى وجه الإعصار معابدنا،

وتصوفنا

يامنْ ينجينا، فالساعةُ بالهول اقتربتْ

الغادى مثلُ البارح

والقاعدُ مشدوهاً، كالضارب أعناق الأقران

لكنى أسمعُ، أتسمعُ،

من بعدٍ تأتى الأجراس

بعويل الليل، عزيف الريح الغضبى،

دمدمة الطوفان

هل تكفى فى العمر بقية

كى يولد فينا الإنسان؟

* * *

مكانكِ الوثير... لاتبدلى ولاتغادرى

فى الزمن المجنون بالتغيير كلَّ آن

تماسكى، واتئدى

واستمسكى، لاتفرطى ولاتداورى

فالصاحب الأمينُ خانْ

وكلنا من كأس غيره رشف

ماضرَّ لو تشابكت أنسابنا،

واختلطتْ أصلابنا،

وغاضَ من عُيوننا ومن جباهنا ماء الشرف

تماسكى، فليس موعد الشتاء بالبعيد

يطرحنا على مدارِج الثرى..

مرتعشين، شاحبين، حالمين بالجديد

تماسكى ولاتكابرى

فالحاضر التعيس فرّ من ثقوبنا

كما يفر الحلم من جفوننا المضرجة

لكنّ قبضة العزاء تُحكم العرى

على بقايا نَفَسٍ، وبعض حشرجة!

كان..وكان

كان الشجر الساجى فى عينيها يبكى

تسّاقطُ أمطار الشجو،

وتخضل جراح وُئدتْ خلف السمت المتماسك،

عمراً طال،

الشجر الباكى يرحلُ، يسحب أستاراً كانت،

وظلالاً شوهاء

ويكشفُ عمق الهاويتين الجاحظتين،

الفاغرتين فما معتلا، لايحكى

ماذا بعدُ من الأيام؟

الشجر الساجى نام

وانطفأت جذواتُ النقمةِ فى القلب المقرور

وتهيأت اللحظةُ للإغفاءِ، فمن يدرى ماطولُ الغفوة

ماعمقُ الذكرى السوداء!

الرأس يميلُ على استحياء

يتخاذل،

يهوى

تتفكّ عرى السمت المزموم

وتقعى الأشياءُ على الأشياء

ويغيب السر، يغادرُ طينتهُ الحبلى،

تتكىءُ الساقُ على الساق،

وينكفئُ الصدرُ العارى المذعور

ونعودُ ندورُ مباخر وطقوساً

وضراعاتٍ حمقى، واستجداء

يامن تفتضّون بكارتها

الشجرةُ ماعادتْ عذراء!

* * *

كان الحفل الصاخبُ ينشب فى لحم الغائب أظفاراً

وقواطع مسنونة

والكلماتُ الوالغة العطشى للدم

تتاجزُ أقنعة السادة من فرسان الهيكل

دقوا بسنابكهم إيقاعَ الموت،

ولحنَ الصرخات المجنونة

الكلمات الطلقات تئزّ

الكلماتُ الكلماتُ تخور

الحفل الوحشى يبارك باسم الهيكلِ

باسم طقوس الربّ ذبيحةَ هذا اليوم،

يُقدمها قربان ولاء مسعور

الكلمات الطلقات تمور..

ويفورُ التنور

يختلط الصوت الواحدُ، ينشقُّ، ويصبحُ أصواتاً

تتقاذفُ لعبتها

تتشابك،

تلتحم الأيدى،

تنهارُ حدودُ اللعبة،

ينهار السور..

وأنا فى حفل السادة، ذاك القرويُّ المبهور

أبحثُ عن كلمات لايُعشيها النور

أبحث عن خيطى الواهى فى جسد التنين المذعور

يامن هيأتم لى موتى

ردوا صوتى!

* * *

كان المطر بحجم الكون يدقّ النافذة الشرقية

ويداك تدّقان الباب الموصد

ينفتحُ البابُ يطالعنى السَّمتُ المأنوسُ،

يُباغتنى الفرحُ الطاغى

ياللوجْهِ القادم عَبْرَ مسافات الدّنيا

أُجلسه جنبى،

أجعلُ عينىَّ له متّكأ ووسادا

أتلامس فيه

يُضرُّجنى الشوقُ المخبوءُ وراء الجلْد العارى

أنسى كَمْ طوّفتُ بعيدا عنك،

وكم ألقتنى الدنيا الدّنيا ذات مساء، وحدى

خلّف الجدران الباردة الصماءِ

أحاورُ صمتى،

أُنشبُ فى الكون المترائى لى عينين مُغلّلتين

بِعبء الغربة والتذكار

يا من يحملنى عَبر تخوم الحزن إليكِ

المطر بجحم الكون يدق النافذة الشرقية

أتلفّتُ،

أين السمتُ المأنوس! الطيفُ الزائرُ!.

أين يداكِ الحانيتان الغارستان محبّة!

وحدى!..

فى هذى البقعة من قلب العالم،

فى قلب الصحراء الجرداء

وحدى!

فى عرس الشجر الباكى وهو يموتُ على استحياء

وحدى!..

فى الحفل الوحشىّ يلوكُ عصارات الأمعاء

فمتى تأتين؟

شاعر الربابة

ومرت عليك وجوه الأساطير

تنفخُ فيها

تزوّقها كلّ يوم، وترحل عبر الخيال البعيد،

لعلك تصطادُ منها عجيبة ليلتك القادمة،

وحبكة لحن القرار،

إذا انفعل القومُ بالخاتمة

وماجوا،

نشاوى التلهف

منجذبين إلى مقدم الفاجعة

ويفتكُ أبطالك الفاتحون،

ويصطرعونَ،

يَخوضون هولَ المصير،

ويلتحمون

على وتر فى ربابة!

وينهمرُ الدمُ

تنطلق الصرخةُ الجائعة

لوهم البطولة،

للفعل،

للهمة الضائعة!

ويعلو النشيجُ،

ويعلو الهتافُ،

ومازلت تصعدُ، ترقى الخيال، وتصعدُ

أنت انسيابٌ وراء حدود المحال، وأنت انطلاقٌ

بعيدُ الجموح، وصوت ذكى التلفت،

قاسى الفجاءة!

تغوص بأحشائنا، فنغوصُ ثقالاً

وترهف نصلك فينا..

نلوذُ إلى الخدر الباطنىّ

نصيرُ رجالا!

ونحلم أنا كبرنا

وأنا امتطينا سحابة

وأنا عبرنا الهضاب الشوامخ

جزْنا العصور الخوالى

لبسنا عباءة كلّ المغاوير،

سقنا إلينا الزمان نصفى حسابه

لبسنا رداء القياصرِ

ياللوجوه المهابة!

ونصحِو..

فلا حلم يمسكنا .. أو ضبابة

ونسقطُ من فوق ظهر الغَرَابة!

* * *

ويقتلك الهمُّ،

تقتلك اللحظةُ القاسية..

وقد هرمت فى يديك الربابة

وشاخت حكاياتها..

وتفرق أبطالك الفاتحون

وأطرقت وحدك:

أين البطولةُ؟

أينَ معارك كانت تدير الرؤوس،

وتملأ كلَّ العيون انبهارا عنيفا، وجذبا

وأنت!.. وأبطالُك الراحلونَ..

صنعتهمو بيديكَ..

خلقتهمو من عناء الليالى وكدِّ السنينَ الشحيحة

وأطعمتهم جوعك العبقرىَّ

وصنتهمو عن مباذل كلّ البشر

ولست كأصفر من قد خَلقتَ

ولا لك حظ البطولةِ يوماً

ولاحظ أوهامها الكاذبة!

وحظ انكساراتها الخائبة!

ودوركَ مازال،

دوركَ مازال،

مرُّ التوتر، جهنمَ الرتابةِ

تعبرك الملحماتُ،

يجفُّ الغناءُ على شفتيك

يضيع الصدى فى شروخ الربابة

وتبقى:

- كما نحنُ فى عصرنا -

سؤالا عصىَّ الإجابة!

المهاجر وحيدا

تتسللُ قطرة ضوء من نافذة الليل

وكأنَّ يدا تمتدُّ، تلامسنى وتؤانسنى

فأريحُ الرأس المكدود المثقل

وأنقّلُ فى دائرة الصمت المسدل خطواً معتلَّ الأصداء

يامن يحملنى لينابيع الضوء القادم

علّى أتسلقُ هذا الخيط الممدود،

أجاوزُ هذا الأفق الكابى،

أحملُ ماخلفت الأيام بصدرى، أنأى عن وخز اللعنة

أُبعدُ فى التيه،

وأرحل!

* * *

ماذا خلَّفتُ ورائى؟

عينين مؤرقتين تتوءان بعبء الساعات الممرورة

فى الشط النائى، تنتظرانى، وتحوطانى

وتخفّان ورائى حين أسير وحيدا

ألتفتُ ورائى؟ كيف؟ رماحُ القوم تلاحقنى

وتنوشُ بقايا من قطرات دمى

تتنزَّى من فوق الحسك المسموم، فأرتدُّ طريدا

هأنذا، تتفتت قدمى

يتهافت قلبى،

تترنح ذاكرتى،

ويخورُ المعنى الساكن فى صدرى

أعشى ياعينىَّ، فكونا باصرتىَّ

فمالى بعدُ أنيس أو صاحب

ياويلى، لو حدقت ورائى

عيناك تردانى

وتصدَّانى عن وجه الغربة والمجهول

تملكُ أن تأمُرَنى

تملكُ أن تقعدنى

وقعيداً كنتُ، ألوكُ العجز،

وأنطحُ صخر الزمن المختلّ

ورماح القوم تلاحقنى

وتنوش بقايا من قطرات دمى

ياويلى!

* * *

قولى لهم إن يسألوك: غاب دون أن يقول أين!

وطار، لم يترك كليمة للصحبة التى تجاهد الحنين،

ماجدوى الكلام!

وليس بعدُ، غير رنوةٍ إلى النجوم وانتظار

لعلهُ يطلُّ ذات ساعة مغبّراً من خلف قافلة

لعله يجئُ دون موعدٍ،

محملاً بلفحة السنين والأسفار

لعله، وآه من زيف لعلّ!

من أجلها،

أخوضُ فى وحولهم،

أنأى عن الصحاب والأحباب،

أجتاز المضيق

أرحلُ فى الليل وحيدا، مثل نورس مهاجر

لعلنى

- عند نهاية المطاف والترحال -

يلقفنى وجهٌ صديق

مثلى

مهاجر غريق!

المغنى..والشيخ نظام الدين

كان يغنى

يُعول فى صحن المسجد

يجأر بالصمت المخنوق، ويجهش بالدمع الأسودْ

ينسكب الحزنُ، وتتغرزُ اللحظات القاطعة النصل،

تغوصُ السكينُ، الجرح يسيلُ، الرأسُ يميلُ،

الخطوُ المشدودُ المتوتر يصفى، يثّاقلُ

يدنو من قلب المشهد

غمغمةُ الصوت تبينُ، تردد:

يثربُ،

مكةُ،

ومحمد!

ضائعة فى سيل العجمةِ، فى لفح مباخر وعطور

يا الله!..

صوتٌ يتردّدُ فى الصحن المهجور

فتميل مآذن توشك أن تركع

وتئن منابر ـ كانت تسعى صوب إمام الدنيا والدين

تُهرول بين يديه، تلامس موطئ قدميه،

وتسبح فى كلمات النور

تنكمش الآن، وتقعى فى الديجور

أخطو،

نخطو، نتأملُ قصر القلعة، من خلل المحرابْ

هذا بهو الديوان العام، وبهو الديوان الخاص،

وساحُ الرقص، وحمام الملكة، وقيان القصر

والنهرُ الجارى تحت القوم يعانق متكأَ

المستعصمِ باسم الله، يقبل حبوةَ سرواله

وتفيضُ مباخرُ بالندِّ وبالعنبر

ويرن صدى فى ساح البهو الخالى يتردد

ياشيخ نظام الدين:

ياوتد الأرض، ويأمن الدنيا

يامنْ نورُ الجلوة شمعُ مجالسه المشهودة

كأسكَ مفعمة بشراب العشق الأسمى

وبُراقك يحملنا فى دهليز الرؤيا

ينجينا من أسر الظلمة، فى ساح اللقيا

أيقظّنا .. ياشيخ نظام الدين

إناَّ موتى!

وسُبات الموت طويلٌ.. ماأقساه!

حدثنا .. ياشيخ نظام الدين

إنَّا غرباء بهذا العصر،

نضيعُ وراء زحام لفاه

أدركنا، ياشيخ نظام الدين

فدروبُ الحقّ تقودُ إلى كنفك

ـ هذا المتحلى بالياقوت وبالمسجد ـ

مازال يردد:

يا الله!

* * *

حين يصير الحجرُ غريباً!

ينتصب مهيب القامة.. لكنْ فى استحياء

يتسمع لغو رطانات الأقوام المبهورين

بوقفته الأسطورية

وأصابعهم تتقرّى ماأبقت أيامُ الهولِ

على صفحة خديهِ

تطالع فى عينيه وميضاً من خيلاء

تتحسس نقشا كان، حروفا نُقشت بالتبر

رسوماً طال العهد بجلوتها

أثراً .. مازال يبوحُ..

ويبقى الحجرُ الجامد وجه عزيز ذلَّ

يطالع سمت المشدوهين،

يكفكف من عدسات التصوير البلهاء

وينهنه بالصمت الراعف، بالأصداءِ

كوقْع الطبل الأجوف،

ملء غضون الذعر القابع فى الشفتين المُلْجَمتين

ويرقبُ دورة هذى الأفلاك

الحظ المعكوسُ تردى فى الخذلان

وغاب النصلُ بقاع القلب المثقل بالتذكار:

«العاشق لاينطقُ بالسر

إنْ باح يمت»

فى السند، الهند، وراء النهر

وفى قرطبةٍ.. سيان..

أطلال تبكى،

تقلع بحثا عن غفران

الطللُ الجاثم يرتاح على صدْر الطلل الجوّال

يتنقّلُ بين شعاب الدنيا، عمرا طال،

زماناً موصول الأحزان

فمتى.. ياشيخ نظام الدين:

الكون مريض بالأوثان

الكون ملئ بالبهتان

أدركنا..

قبل الطوفان!

فى المصيدة

عارٍ..

وترجمنى العيون!

عارِ..

وتقذفنى الظنونُ إلى الظنون

ـ «من ذا رماك هنا؟

وكيف تأرجحت قدماك بعض هنيهةٍ ثم انحرفت

ونسيت يومكَ

والذى قد كنت تلهثُ خلفه

لما انجرفت»

عارٍ..

وصوتُ القوم يقبلُ، خطوهم نحوى يئزُّ

حشاى يسقط، آه ياهول الفضيحة لا تُعجّل

كيف لى أن أستر القبح المهين

عن العيون الوالغة!

لاشئ يسترُ!

ـ رب ياستار ـ

لا..

لا فائدة..

إنى سقطت هنا.. بقلب المصيدة!

* * *

أنا فى الطريق إليك، ياوجهى المحملق

فى الأزقة والعمائر

ـ ما زلتَ مرتاعا، تجوب الناس،

تنبش فى الحنايا والضمائر -

بينى وبينك من حطام الأرض أوراق تخبئها الدفاتر

نامت بداخلها القضية

أفعى،

تَلوّى حول عنقى

حول أعناق الصغار الراكضين وراء إرثهمو العظيم

من ذا يدلهمو عليه؟ ومن يقودهمو إلى شط الأمان؟

والحكم لم يصدر، وأقنعة القضاة تقول شيئا ما،

وتحجم عند أشياء،

وآونة تصب شكوكها فوق الجميع..

مازلتُ أحملها - دفاترنا المليئة بالغبار،

أوراقنا المتآكلات تضمُّ حاشية العقار

يامن يقربنا إلى يوم الخلاص؟ وكيف!

كيف!

ولا شفيع، ولاسميع

وليس غيرُ الانتظار!

أنا فى الطريق،

هواجس الخوف المرير تهزنى هزّا

وتقعدنى على وجه الرصيف، تفحصت عيناى

سيل العابرين، سرحتُ، وانقشعتْ

سحابةُ يومىَ السأمان، وارتحل النهار

ـ ماذا لو انّ الحكم أُجل مرة أخرى!

وثانية تعود الدائرة

وتعودُ كلُّ صحيفة الأتعاب «والرسم المسجّل»

والذهاب إلى المحاكم والإياب

وتعودُ تنقصنا الأدلة، والشهود!

ومالذى جعل الشهود بساحة العدل المنيع

يراووغون، ويهربون!

ألأنهم خافوا؟

وممّ؟!

خطاكِ قادمة، تباغتنى، تثير ضغينة الأحقاد

فى رأسى على السعداءِ فى الدنيا، تزلزلنى

ترد إلىّ طينتىَ القديمة،

وجه أشواقى الذى نزفته أورامُ «القضية»

أو لستِ أجمل من لقائهمو جميعا؟

- هؤلاء القابعين وراء أقنعة القَضاءِ،

وهؤلاء الهاربين من الشهادة، والذين تجمعوا

حول القضية فى وجوم،

والذين يتابعون الأتعاب فى

الفصل الأخير من «الرواية»

بل أنت أروعُ من غدى الآتى،

ومن عمرى الذى يمضى بلا معنى

ومن وجه العمائر حين تصبح فى يدى إرثا

ومن وجه الصغار

ونظرتِ لى،

ونظرتُ

«هل حقا إلىّ أنا نظرتِ!

وابتسمت عيونك،

وابتسمت طربتُ، ياللحظة المعطاءِ

واهتزت يداك، أشرتِ لىِ؟ أم أنّ .

أوهامى تخيل لى؟ أصدق؟ لاأصدقُ؟

أنت؟ وافرحى!

صعدت، ركبت خلفك، فى الزحام دفنتُ

رأسى، كنت أسندُ نشوتى الكبرى بأنك لى

تبعتكِ

صرتُ خلفك ظلك الثانى،

عواءُ الرغبة اليقظى يمورُ، متى الوصولُ!

ألا جدارٌ واحدُ.. يكفى ليسترنا!

ولكن! لا، فهذا بابُ بيتك قادمٌ

ـ من قال هذا الكهف فعلاً بيتها؟

ـ قطعا!

وإلا كيف لأن البابُ، وانفرجتْ مصاريعُ الأمل

دخلتْ

دخلتُ

توهّجت، فتوهّج اللهب القديم؛

تعانق الحقدُ الدفينُ مع الجمال المستثار

وسكرتُ؟ أم سكرتْ؟

تملكنا الدوار

وسكنتُ، فانطفأتْ رغائبنا معاً

وخبا الشرار!

* * *

وأَفقْتُ

لستِ بجانبى..

بل لستِ فى الكهف الذى قد ضمنا

ناديتُ، ليس سوى الصدى

ناديتُ، جاوبنى المدى

ونظرتُ ثانية! لقد حملتّ جميع ملابسى..

معها.. وفرت.. كيف أخرج؟

كيف أهربُ!، كيف أبقى عاريا!

كيف النجاة!

ياويلتاه!

* * *

عـارٍ..

سترجمنى العيون!

عارٍ..

وتقذفنى الظنون إلى الظنون إلى الجنون!

عارٍ، وصوت القوم يقبل، خطوهُم نحوى يئزُّ

حشاى يسقطُ، آه ياهول الفضيحة لاتُعجّلْ

كيف لى أن أستر القبح المهين عن العيون الوالغة!

ـ «كيف انجرفتُ إلى هنا؟

ـ بل كيف قادتنى خُطاى؟ نسيتُ وجه قضيتى المغبرَّ؟

كيف إلى ابتسامتها استنمتُ؟

أكان ذلك صدفة عمياء؟ أم بلهاء؟

ـ لا..

هذى مكيدتهم، وهذا وجهها العارى

أتوا بى هاهنا، الأوغاد، حتى يفضحوا طيشى،

يسيمونى الهوان، يضيع حقى فى القضية!

ـ «أم كيف تنكرُ، والأدلةُ فى يديهم دامغة!»

وخطاهمو اقتربتْ، هسيسهمو يطنّ،

الويلُ لى،

لاشئ يسترُ،

ـ رب ياستار ـ

لا..

لافائدة!..

إنى سقطت هنا بقلب المصيدة!

ومات الفارس على فراشه

يجيئنى صوتك من قرارة الرمال

مجلجلاً، جذلان، يقرعُ المدى

أقبّل الصوت وأحضن الصدى

فلم تزلّ فيه بقيةُ النقاء فى الرجال

وكان آخر المطاف أننى سمعتهُ

ـ يجيئنى من حيث أنت،

من مكانكَ البعيد عن عيوننا ـ

---

* إلى صديقى «رضا»، كان فارسا نبيلا.. مات قبيل حرب أكتوبر (مايو ١٩٧٢).

وأنَّ فارسى هناك.. مايزال!

* * *

الحال من بعدك؟

هل أقول: كلّ ليلة نعشو إلى الركن الذى

ياكمّ ملأتَهُ، وظلّ رطبا فارغا

يوحشنا بلذّعة البرودة المُفزّعة

وبانطفاءةِ البريق فى عيوننا التى تآكلتْ

وبارتجافة الأصابع التى لم تقّو أن

تفجّر الكبريت فى عروقنا، يظلُّ ثِقّلٌ قابضٌ

ووحشةٌ تمسكنا من الرقاب..

ولفظةٌ نقولها، نقطع عبء اللحظة الشوهاء

يستدير كلُّ مانقوله، يجفُّ فى حلوقنا، نغصُّ

يصبح الحديثُ أنّت! دامعا وراعشا، وخانقا..

وعندما نُفيق من دوامة الذهول

تملكناُ الدهشةُ والسؤال: كيف؟

ـ وأمس كان بيننا .. ومايزال! ـ

وبعدُ.. لم نصدق الرحيل

ـ والموتُ راحةٌ حين يصير ماضيا مُصدّقا ـ

ونحن مانزال فى انتظار خطوتك

بعد قليل، تطرق الباب، تهلُّ طلعتك..

تملؤنا بفيض حبك الكبير للحياة..

تسكبُ فى صدورنا حنينك الجريح للسلام

وحلمك القديم أن تعود مثلنا،

للواحة التى تظللنا معا

فالفارسُ الحزينُ مايزال يسترُ الطعان والندوب

فى بريق مقلتين، تدمعان، تنطقان بالأسى..

ولايقول!

يمشى على جراحه.. ويتكئ

ينزف من أعماقه.. ولا يقول!

من يوم أجبروه أن يزيل عن صدور

رفقة السلاح شارة الميدان

وأن يمدَّ عينيه إلى عيونهم محملقاً فى هوة الفراغ والعدم

ودورة الأشياء حين يلتقى الشجاع والجبانْ

هناك، فى زنزانة السجَّان

وليس من جريمة.. ولاأثر!

لكنه الزمان!

....

بعد قليل، تطرقُ الباب، تهلُّ طلعتك

يغمرنا جناحكُ الوثير بالحنان

تلوّنُ الكأس التى تكرهها شاحبةً، وتنتفض!

لأن شيئا فى عيوننا، كأنه الرثاءُ،

أو كأنه السؤالُ جارحا، كأنه

نزفُ القرار فيك أنت، أو لعله الشرابُ،

أو حديثنا المدبَّب الصريح

يسأل عن بطولة الميدان!

نسأل عن فجاءة الأوان!

وتجمدُ النظرة فى عينيك، يجمدُ الأسى، ولاتبوح

لكننا نسمعُ فيك ثورة البركان!

* * *

يجئُ من يقول: كان ساهرا ليلتها

ينادمُ الليل البعيد فى خلاء وحشةِ الرمال والتلال

وكان قابضا على زمام نفسه التى تئنُّ، تدمى،

يطفئُ الأنين فى سراب كأسه التى لم تمتلئ

يرقب من وراء هجعة الظلامِ

ضفة أخرى

سيصبح الصباح وهى ما تزالْ

الضفة الأخرى..

لعلنا.. نحاول المحال!

لعلنا..

ونام دامعا، جبهتهُ المثقلة المهمومة

إلى يمينهَ التى كانت تُهيب بالرجال

لعلنا..

نُحطمُ الأوسمة القديمة!

ونلعن الخذلان والضياع والملال!

....

ولم يمت بلوعة الهزيمة

وإنما..

- كما نموت نحن كل يوم -

بالعجز عن هزيمة الهزيمة!

شهود سفينة غارقة

المشهد من الخارج:

تغرب شمسكِ الكسيرة الشعاع فى قراراة المحيطِ،

يزعم العرّاف أن فجرك الممسوخ مات

- من قبل أن يولد مات -

وأن أبناءكِ ياللعار حين غللتهم الرتابة

شدّوا الرحال،

خلّفوكِ شيخة ثقيلة الأرداف والخطى، ملعونة السيماء،

وأفردوك فى العراء

قعيدة تجتر صمت الموت والكآبة

وفوق سطح اليمّ تسبح الطحالب المزركشة

تختال فى مسيرة الديدان، تلعقُ الأوضار والأوحالَ،

تحجبُ النسيم عن رفاتنا المهترئة

ولم نعد ندرى

نحن الذين مازلنا

- يشدّنا التراب، والأواصر القديمة الأسباب والحرف اللعينُ -

هل يقتلنا الأسى المهينُ،

أم تقتلنا الدهشة فيكِ والغرابة؟

صوت أول:

أرفض أن يكون عمرنا القصير مأتما

ياطول ليلنا الذى يظل لم نثقبه بعد

لعل كوة وحيدة تضئ،

نسمةً تهبُّ،

لفظة تشعل فى عروقنا رمادنا القديم

ويلاه من ألفاظنا الباردة المحنطة

تقاذفتها الريح فى وجوهنا،

حتى إذا ماالختنقت دوامة الغبار

تساقطت ألفاظنا على الورق

سطور عار

أخاف من لقائنا

من لحظة تجمعنا، نملؤها شكايةً،

ورغبة قعيدة، مغترية

ساعتها،

ويصبح الحديث سأما

ويصبح التذكار ندما

ويصبح الوجود عدما

لكننا نظل فى رتابة الأشياء، نمنح الأشياء من

صميمنا

لعل صوتنا القديم أن يعود

وينسف الحواجز الغلاظ، والمقاعد المرتبطة

وعندما يسّاقط الأسى

ولانطيق أن نرى وجوهنا،

أو نسمع النعيب فى أفواهنا

نرحل،

قبل أن يأخذنا الدّوارُ، قبل أن يسحقنا الدمارُ،

قبل أن يفجأنا النهار،

وعندما !

صوت ثان:

تأملونى

صار لى وجهان: وجه بومة ووجه ثعلبان

على دموعكم أجوس، أعبر الكهوف والخيران

ممتشقا لسانىَ المدرب الفصيح

منطلقا من ربقة الزمان والمكان

وساكبا فى سمعكم أكذوبة الأمان

أمد كفّىَّ استغاثة، أو محسنا، سيان

وليس ثَمّ من يقول كيف؟ أو لمه؟

وكلنا فى غمرة الطوفان

تّنوشنا سنابك الأحزان!

صوت ثالث:

يهتز كل شئ

الشارع يهتز

- العالم يهتز

- الأفق المحدوب فوق مدينتنا يهتز

- تهتز التفعيلة، تسقط فى إيقاع الزمن المثقل بالضوضاء

نخرج مذعورين، نفتش عن مأوى، نتماسك، نهوى،

نتصادم، نقعى، نتساند، نسقط مذعورين،

يدحرجنا الرعب الوحشى، نخوض وحولَ الموت ونهوى

ألمحَ ثمَّ قبائل تأتى وتروح

بيارق ترتفع وتُطوى

وجنودا تفترش الساحة، تغفو فوق جيادٍ

كانت بالأمس تحمحم حتى أتعبها التصهالُ الكاذب

سكنت تحت غطاء الليل الكابى مقرورة

وتغيب الصورة

تهتز، فتتطمس الأشياء وترتطم الأشياء،

ولايبقى إلا صوت مشروخ

صوت مازال يئز!

هذا الصوت الضائع فى البرية

يرثى فينا كونا يهتزّ!

صوت أخير:

لا، لاتحاولوا التقاطهُ

مضى، تبدّدت خيوطه،

التقى بغير سمعكم ولن يعود

لكننى أشهد: كان شاحبا، وكانَ

ينسلّ فى مرثية قديمة

لمحتُ فى سطورها غرناطة الشهيدة

تسوق للقاء فارسا وفارسا

ويسقط الأبطال فى حومتها قصيدة

أشهد، كان فى شعاعة المساء

محدّرا دموعه الساخنة المهمومةِ

وقبل أن يغيب رفّ مرة ومرتين

لعله يبحث فينا عن صدى

لعله كان ينادى أرضه المفقودة

وحين غاب، كان باهتا، وكان يائسا

ويطبق الأسى!

شمس اللّه فى قرطبة

فوق الثرى العاطر فى قرطبة الوديعة المزينة
رأيت نور الله ينداح على أفق كنيسة ومئذنة
شاهدت آى الله تتّرى، فتذوب عثراتُ الأزمنة
وتَمّحى الأبعاد والأسوار، فالكل وجوهٌ مذعنة
دانتْ لوحدة الشعاع فى سريرة التقىّ المؤمنة
سمعتُ صوت الله تتلوه شفاه عامراتٌ محسنة
نبضاً سرى،

* المؤتمر الإسلامى المسيحى الثانى فى قرطبة (مارس ١٩٧٧).

ثم استكنّ فى حنايا الكلمات المعلنة!

* * *

ما زال فى المحراب من صدى زمانه الذى ولىّ أذان

ترتجُّ دون وقعهِ الجدرانُ، يهتز الزمان والمكان

وتستديرُ ملء صحنه المضمخ العطور مقلتان

تستجليان موكب الأمان فى جلاله وتسجدان

تستشرفان دورة الأيام والرؤى، وتخشعان

هذا ضياءُ الله،

بيته المشعُّ بالسلام والأمانْ

ونحن فى سفينة النجاة نلمسُ الضفاف والشطئان

جمعانِ

من بعد الشتات، واغتراب الملتقى، يلتقيان!

* * *

ألمحُ حجرا يبكى

أطلالاً تعول فى وقفتها الأسطورية

لحناً كعزيف الجن يدمدمُ بين تخوم الربوة،

والجسر المهجور

أسمعُ هسهسةً، وشجونا، مازالت حيرى مفترية

فى قاع النفس تثور

ويداً تمتد إلى الوجه الكابى المذعور

تتقرّى وجه الحجر الصلد،

تطالع هذا السمت المأنوس،

وتخشع فى سجدتها،

ويدور الدهليز الممتدّ إلى الزهراءِ

يفاجئنا بشعاع النور

ترتاح قلوب ثكلى وصدور

كانت تضربُ فى تيه الديجور!

وتنادى،

من فوق الربوة والجسر تنادى:

«ياعبد الرحمن، ويامنصور

ها نحن نعود إليك

الأيدى سكنت فى الأيدى

وخطانا ارتاحت فى جسر الحبّ المعمور

ترسمُ دربا ميمونا للقيا

والطيفُ الهاتف مازال يشاغلنا

فى الصحو، وفى جلوات الرؤيا

فامنحنا بعض شعاع من عينيك

فالدنيا غيرُ الدنيا

لكنّ نداءك يجمعنا ويوحدنا

فى الأرض السمحة يجمعنا ويوحدنا

فانظر ماذا صنعت فينا الأيامْ

نستلّ مرارتها

ننتزعُ دمامتها

ويعودُ الإنسان إلى الإنسانْ

جمعا نتساند، كالبنيان

فى وجه الظلمة، والطوفان!

* * *

أقسمت بالإسلام،

بالسلام،

بالقلوب وهى مفعمة

أقسمت بالذى أضاء فى عيوننا طريق المرحمة

ومد فى طموحنا حتى ارتقينا للإخاء سلمه.

وبث فى صدورنا ضياء هديه لنا وعلّمه

يغسل بالنور بقايا السنوات المدبرات المظلمة

أقسمت هذه بدايةُ الطريق، بادروا مُخْتَتَمه

عيسى وأحمد عليه يفرسان فى القلوب أنجمه

تعانقا هدّيا إلهىّ السنا، متوّجاً بالمكرمة

ونحنُ حاملوه فى أعماقنا،

لن نُسلمه!

أغنيتان لمصر

«أحبك»*

أحبكِ

يانبضة فى صميم الحنايا

ويادفقة من شعاع السماء تضىءُ خطايا

ويامنتهى غايتى..

إن تمنيتُ أفقا وضيئا

وفجرا نديا

---

* أكتوبر ١٩٧٣

وعيشا رضيا

وناديتُ، كنتِ الصدى فى ندايا

ويقذفنى اليوم للأمس،

يقذفنى الأمس للغدِ،

أسبحُ، عبر فضائك،

أرتادُ أفق نجومك،

أسكب روحى على ضفتيك شظايا

* * *

أحبك

فوق ترابك يغمرنى الشوقُ،

تبض عيناك، أخشع، أرنو

وقد أتكورُ فوق يديك شهيدا، وأغفو

تُطلين فجرا جديدا، وعمرا

ويمنحنى شاطئاكِ امتدادا

وراء حدود الزمان،

وراء حدود المكان،

كأنى تماثلت فوقك دربا

تمر عليه القوافل تسعى

كأنى انتصبتُ جدارا منيعا وسدا

تطيش عليه الأعادى.. وتفنى

كأنى تلاصقت فى حضن من غاب:

أحبابنا،

والشهيد المضرَّج،

والأمل الأخضر المستثار،

ورايتنا ركزتها السواعد فى جبهة الشرق،

يكبر من حولها أمل العائدين،

يمرون،

ينبطحون عليها،

يضمون وجه ثراها المندى

تُكبر أفواههم بالصلاة،

يضمونها فى خشوع الحجيج،

وفى لهفة العاشق المستهام،

يعودون،

قد عصف الشوق

طالت ليالى البعاد،

وغاصت أصابعهم فى التراب المفدى

تبدّل وجه الليالى نهارا

تفجر صمت السنين انتصارا

* * *

وقفت أناديكِ من عمق جرحى

وأهتف: نمضى وتبقيّن أنت

وأهتف: نمضى، وتحييّن أنت بعزم الرجال

بعزم السواعد وهى تشقُ غبار المفاوز،

تقتحم الهول من أجل عينيك،

من أجل لؤلؤتين تضيئان وجه الزمان،

من أجل وجهك هذا المضمخ بالدم،

من أجل يومك، يكبر، يمتد، ينفسحُ

الأفق حوليه،

يحمل فجرا جديدا

وحلما وليدا،

ونصرا..

وتبقين يامصر.. مصرا!

«اليوم السابع»

اليوم السابع جاء

والراية فى أيدى الأبطال الشجعان

تتلألأ فى وجه الدنيا

وترفرف أبدا فى خيلاء

من فوق التبة فى سيناء

* * *

اليوم السابع جاء

سقطت أحلام المخمورين المزهوّين

داستها أقدام الأبطال المنصورين

قذفت ببقايا الوهم الجاثم فى سيناء

- الوهم ابتلعته الصحراء -

أنبتت الأرض الطيبة المخضوبة

وردا يسقيه دم الأبطال

وحنين التواقين ليوم الثأر

جاءوا كالسيل الجارف، كالزلزال

يحملهم مد الشوق العاصف

يدنيهم من وهج الأرض المسلوبة

وترفرف أرواح الشجعان على سيناء

يرتاح الشوق اللاهب

تحتضن الأيدى وجه المحبوب العائد

وجه الوطن الغائب خلف غيابات الأيام السوداء

وجه اللحظة، حين يصب الماضى فى الحاضر

يتصل نداء الإنسان وسعى الإنسان

اليوم يعود إلى الأشياء مذاق الأشياء

يصبح للكلمات مذاق الكلمات البكر

وتعود الروح إلى مصر!

* * *

عبر الأبطال الشجعان

عبرنا نحن جدار الخوف

عبرنا وجه الأيام السوداء

عبرنا سد الذل الجاثم فوق رقاب القوم المحنية

فارتفعت كل الهامات وكل الأعناق

شامخة الطلعة.. والسيماء

تتلقى الضوء القادم من سيناء

صنعته بيارق هذا اليوم الموعودة

تتلقى الفجر القادم من سيناء

صنعته مواكبُ هذا الزحف المحشودة

تتلقى النبأ القادم من سيناء

صنعته ملامح هذا النصر المشهودة

تتلقى الصوت القادم من سيناء:

«قوموا انتبهوا..

أبناؤكم الأبطال الشجعان

صنعوا وجها آخر للتاريخ.. وللإنسان

أبناؤكم الأبطال الشجعان

ضربوا المثل الأعلى فى قلب الميدان

قوموا انتبهوا

أبناؤكم الأبطال الشجعان

عبروا..»

فعبرنا خلفهمو سدّ الأحزان!

الدائرة المحكمة

لا مفـر

هـذا أنا..

وفى نهاية الطريق.. أنتِ

واحةٌ شهية، سحابةٌ سخية تمرّ

أدمنتُ ظلّها.. ولاَ مفرّ

والآخرونَ.. بيننا!

* * *

هـذا أنا

لا جائعًا أتيْتُ أو مُطارَدا

أو هاربًا من موسم الجفافِ والحطبْ

أو باحثًا فى ذروة الزحام عن مغامرة

فقد تعبتُ من تفقّد المدى

مستقرئًا للغيب أو منخذلاً فى المنحنى

ومن قلوب هشةٍ مُراوغة

حسبتُ فى بريقها تألق الذهب

لكننى صحوتُ فجأة ذات صباح

كانت ستائر الأصوات غير ما عرفتُ من أحزانْ

وفى الأثير ثَمَّ رائحة

تكشف عنها فورةُ البركان

ممزوجة الأنداء باللهبْ

أدركتُ - يالَروعةِ اللقاء، والإصغاءْ

لمقلتيْك - حين أجفل الصباحُ فى المساء

أنّى سقطتُ فى بحيرتين من صفاء

وأننى أسيرُ فى السماء

وأنَّ أياما خلَتْ من رحلتى هباء

قبل اكتمال العُمر بالضياء

قبل اتّساع العين للرؤى

قبل ارتواء القلب بالهناءْ!

* * *

تسألنى عيناكِ عن نهاية الطريق

أحارُ.. لا أُجيب

يجلدنى سُؤالكِ الصموتُ ألْفَ مرّةٍ،

ويخرس الكلام الحريقُ فى دمى،

ولا أجيب

وتستحيلُ لحظة القاء غُصّةً، وبعض بوْح

لكنّه السؤال، فى عينيكِ ما يزالُ، والحريق

أخفضُ طرفى حائراً وأستديرُ

لا أطيق!

* * *

ترى يجودُ العمر مرةً، بقطعةٍ من الخيال

تنزعنا من يومنا المغموس فى الوجوم

تطلقنا من قيدنا المغروز فى الصبَّار والزقّوم

إلى مدارات النجوم

محلِّقيْن، تائهيْن فى أثيرٍ، ما يزال

ندور فيه، والمدى من حولنا تخُوم

وفى الثرى البعيد عن عُيوننا

- ينأى بوجهه الدّميم -

تخلَّفت أثقالنا

وانطفأ السؤال

فليس من بدايةٍ ولا نهاية

لرحلةٍ تدورُ فى المحال

ترى يجودُ العمرُ مرةً بلحظة اكتمال!

فتسقطُ الحدود والسدود من طريقنا المرصود

وتسقُط الأقنعة التى تعافها الوجُوه والجلود

وتستريح بيننا العيون من فُجاءة الزلزال!

* * *

أغرقُ حين أرتوى

فَنبعكِ المعطاء دافقٌ، بلا حدود

وومضةُ الحنان تفتحُ الكوى

وتجعل الغرقى يرومون المزيد

لكن شيئًا قاتمًا، يرسبُ فى قلوبنا

شيئا ثقيلا داهمًا، كقبضة الحديد

يخنقُ فينا حلمنا المزغرد السعيد

يا ويلتا، يا ويلتا

من وخزةٍ فى الصَّدر تُنهى لحظة الأمان

العمرُ لا يسعفنا

والخوف كمْ يتلفنا

هل من مزيد يا همومنا، تُرى هل من مزيد!

الليلُ موعد لنا

فجرِّبى أن تقسمينا اثنين، أو تشى بنا

والحبُّ قُوتُنا ورحلنا وكهفنا

وزادنا فى رحلة المنفى

إلى اغترابنا الجديد!

* * *

هذا أنا

وفى نهاية الطريق.. أنتِ

والآخرون بيننا!

الليل وحبة الضوء

تجيئين فى الليل - يا قسوة الليل لولاكِ -

يا حبة الضوءِ،

تسَّاقطين بقلبى

أذوب ارتجافًا

وتصطكُّ أرجاء نفسى

أموت انخطافا،

وأعشو إليك،

يجاذبنى ثقَلُ يومى

ويسحقنى حجم همىّ

ويقذفنى للبلاد السحيقة وهى تبوحُ بأسرارها

وتغادر طَوْق الرَّتابة .

أدوُر، أظلُّ أدور،

تلاحقنى ومضة من شعاعاتِ عينيكِ،

تحملنى فوق كلّ التخومِ القصيّة،

أصبح فى خفة الضوء، مُنطلقا فى الأثيرِ،

أحدّق فى عالمٍ من كآبة!

* * *

يقولُ لىَ الليل عنك كثيرا

يحُدثنى عن صباك،

وعن وجهك المستكنّ وراء الطفولة

يحُدثنى عن تجاعيد عينيك حين تضيعينَ

شاردة فى شعاب الليالى الطويلة

وحين تفكينّ لغزًا فينحلُّ،

حتى يجئ بنا لغزُنا صخرةً مستحيلة

يُحدثنى عن بقايا سجائرك المطفأة

وعن دوران الدخان المسافر فى رحلة للسآمة

وعن مزقٍ من شراعٍ تهاوى ولمّا يصلْ مرفأه

وعن دمعاتٍ تجمدن لا ينْحدرن،

وآهة صمتٍ تكتَّمْتِها

فاستحالت أنينا، وجرحًا مدمًّى

وعاصفة من همومٍ ثقيلة

وعن أمنيات تقلَّصْنَ، صرْن رؤى مرْجأة!

يقول لىَ الليلُ عنك كثيرا

أُحسك ساكنة فى جوارى

وألقاك وادعة فى انتظارى

أبوحُ،

ويسقُط عنى القناع،

وألبسُ وجهى،

أعود صغيرًا كما كنتُ فى البدءِ،

جذْلان يا حبة الضوء،

مُنتشيا بالحديث إلى جانب المدفأة

ويحملنى الليلُ، جسرُ المحبينَ،

أدنو إليك، وأرنو

وأنت سحابةُ عطرٍ، ونجمةُ ليلٍ،

وبوْحُ امرأة!

الدائـرة المحكمة

أجيئكِ،

مزدحمًا بالوعود،

مضيئًا كدائرةِ البرق،

منتظرًا لانهمار السواقى،

الاصقُ عُرّيى بجدران عزلتك الموحشة

تلوّح للعابرين الحيارى

أن انغمسوا فى رحابى

ولوذوا ببابى

وسيحوا، دروبىَ ممتدّة مدهشة

وأنشطر اثنين:

بعضى يُلاعن يوم قدومى لديك

وبعضى يبارك يوم انتسابى إليك،

وأمضى،

تلاحقنى دمدماتُ انشطارى

ويصلبنى فى الميادين جوعى وعارى

وذلُّ انتظارى

وأرجع مختنقًا بانكسارى!

* * *

أجيئكِ،

تحملنى صهواتُ الرؤى المعلمة

بكفّىَّ سيفكِ،

أحملهُ عن ميامين قبلى،

مضوا فى هواكِ، وغطّوا ثراكِ،

وفاحوا مباخرَ تمسحُ بالعطر أحزانك المظلمة

ومازلت شاخصة، كالشواهد فوق القبورِ،

كوجه الخرائب فى ليلةٍ معتمة

وأنزلُ فى المعمعان،

أطاعن ثَبّتَ الجنان،

وظهرى إليكِ،

أمنتُ فجاءاتِ هذا الزمان،

تلبَّسْتُ جلد الأمانِ،

عرفتُ اختلاط المسالك،

بلبلة المدلجين،

وطعم المرارة فى طعنات الجبان

ظننتُ بأنك فى الرَّوع حصنّى

ملاذى وأمنى،

وزادى إذا جعتُ،

كهفى إذا خلعتنّى القبائلُ،

واختطفتنى الأسنّةُ،

وانهرْتُ فى ساحة الملحمة

وها أنت،

عاريةً تسترين البقايا

تكشَّف وجهك لى،

وتساقط جلدك،

هذا الخبىءُ وراء مدى الأقنعة

وجدتكِ راجمة الأنبياءِ

وقاتلة الشعراءِ

ومخرسةَ الألسنة

وجدتك عاتية القهرِ،

شامخة العهّرِ،

فاسدة الأمكنة

وأرتدُّ،

أين المفرُّ

وأين براءة حُلمٍ تقصّفَ،

خطْوٍ توقف،

عمرٍ تجاعيدُه مبهمة

وأسقط،

تتسعين فماً لازدرادى،

ولحدًا عميق القرارِ

وفخا،

ودائرةً محكمة!

الشعر فى هذا الزمـان

يا حدّ السيف المرهف والقاطعْ

ها، خُذ في القوم بَراحَك لا تتردّدْ

واقذف برؤسٍ حان قطافُ ذوائبها

وتعرّي وجه دمامتها وغرائبها

في وحل الليل المرصود الساطع

هذا عصر الوالغ في كأس أخيه

العارض سوءته في سوق أبدًا

لا تنفدّ

هذا عصر المتورم جهلاً

من يوقظه؟ من يثنيه؟

نعرفه، ندرك حطّته، لكن في خلوتنا نبكيه

نحذرُ أن نُغمدَ فيه الرأي الفاجع

حتي لا ينهار الحفلُ الجامع والذائع

وتدوم دمامة هذا الوجه المتجدد!

* * *

يتشقق وجه الأرض، يُطلُّ العابرُ في عمق الهوة

الصمتُ يموجُ،

الرأسُ يدورُ

الصوتُ النائي يصّاعد

من قاع الهوّة يصّاعد

مذبوحًا مخنوق الشهوة

ركلته الأقدام الحمقي

وانهالت سافية العدم الأسود

وارتحنا

فالقشرةُ عادت مجلوة!

ها أنت تُحدّق مذعورًا

ووحيدًا من خَلل الكوة

فافغرْ ما شئت فما

وانزفْ ما شئت دما

واهتف بالقادم لا يدنو

فالهوّةُ تبتلع الصفوة

كمدًا فى الخلوة، أو ندما!

* * *

تنزل من صهوة ذاك الحلم، تعود غريبًا ووحيدًا

حلَّقت طويلا

مسَّ جناحاكَ الأفق النائي

شَارفت تخوم المجهول المملوء دروبًا ومنائر

وحفائرَ شتيًّ وبشائرْ

ومسحت وجوه الناس نبيًا ينثالُ وعودا

يبنى يويوبيا وعمائر

ورجعت بحفنة تذكاراتٍ خائبة وبقايا من أصداءْ

غرقت في جوف الضوضاء

فانظرْ حولك

وتأمَّل هذي السوقَ العارية المشهودة

فالكلُّ يبيع ويسقطُ في المحذور

واشحذْ سيفَك

قد تقطع يومًا هذى الكفَّ الممدودة

لا تدري سُمَّ أناملها

أو حجْم الطلقة في الدّيجور

واخفضْ صوتك

حتي لا يسمعك الحمقي، والسفْلة قد يستقصونك

واحذرْ قَدَرك

يترصَّد ما بين الكلماتِ المعدودة

لو تدري الغيّبَ الكامن في المجهولَ

لاختّرتَ العيش طليقًا، وبعيدًا

لكن، ها أنت تدورُ وتسقطُ في شَرَك المقدور

مقتولاً برصاص قصيدة!

لأنك الوطن

على جناح الصيف يرجعون

تُلقى بهم مدائن الغربة والعراء والحنينِ

فى مفارق الطرق

مغلولة أيديهمو إلى خزائن الأشواق

مشدودة عيونهم إلى حقائب السفر

مدموغة وجوههم بوشم عام محترق

تساقطت أيامه فى هوّة الزمن

مُشرعةً آذانهم إلى نداء بالرحيل

وخطوهم يسوخ فى عبء الأسى الثقيل

وفى العيون بعض ما تخلّف الصحراء من غبار

وفى الحلوق بعض ما استقر من أسَنْ

تتابعت حقائب المحمّلين والمزوّدين

واختلطت مواكب المشيعين والمودعين

وانفتحت خزائن المحدّقين فى انبهار

وليس فى الجراب غير كومة من السنين

وحفنة من المحار

لعلها من بعد طول النأى والترحال والطواف

ورحلة الخريف والجفاف

لعلها الثمن!

* * *

ها أنت فى وقفتك المرسومة المراوغة

لا تحتفى بهم،

ولا تصدهم..

تجمعوا أمام بابك الوصيد ذاهلين

وانفرجت شفاههم عن دهشة ونقمة

هل أخطأوا حين أتوا؟

هل أحسنوا؟

لا يعرفون

لكنهم برغم صمتك الثقيل يحشرون

تموج فى عيونهم دوائر الحنين

وحين تطبق الفخاخ حولهم يستسلمون

دون انتظار غاية لسعيهم أو حكمة!

ولستَ حانيا

كما توقّع الغيّاب حين يرجعون

أو حافلاً بالخير،

مثلما تعوّد الآباءُ

حين كانوا يغرفون من عطائك الميمون

وسرِّكَ المبارك المكنون

من حول هدأةٍ ولقمة

أو جامعا للشملِ،

عندما كنت مصلى للجميعِ

ينحنون فى ترابك

ينتشرون فى شعابك

ويقسمون فى رحابك

بأن عهدك الوثيق لن يهون

قد لا تكونُ أىَّ شئ بعْدُ، يرتجون

فقد تشققت حلوقهم، ولم يعودوا يهتفون

وانسحقت أحلامهم تحت خيول الظلمة

وأصبحوا،

حين يغنون وحين ينشجونَ

يستحون

وإن أفاقوا مرَّة وجربوا يفسرون

قالوا : تغيَّر الزمن

لكننا نلْقاك، يا سرعان ما ننهار فى أحضانك

كى ندفن الغربة فى أحزانك

ونُسكنَ العظام فى شطئانك

دون سؤالٍ عنك، أو عنا، وعنّ...

لأنَّك الوطن!

يدوسنا عام جديد

وانتظرناك، فلمّا جئت.. ماذا فى يديك؟

الدمُ المسفوح ما زال،

غُبار الموت،

أنّاتُ الثكالى والسبايا

والصدى المذعور ما زال،

هتاف الرعب،

صوت الباعة الحمقى،

ومنذورون ذابوا فى مواويل الصّبايا

عبثًا صاروا ضحايا

ويد تقذف بالأفعى فتلتفُّ

وفتيان يخوضون المنايا

أملاً فى شاطئيْكِ!

تعبت كلُّ انتظارات الأيامى والعيايا

عندما صارت كهوف العمر للناس مرايا

سقطت عنها التجاعيد،

وشاخ الوهم،

وانزاح القناعُ الصلدُ

وارتدَّ شظايا

وانتظرناك، وها أنت هنا،

ماذا لديك؟

حين فتشنا عن الراية، لم نلق الذى كنَّا رفعناهُ،

وغنيناهُ

عامًا ثم عاما

النداءاتُ التى بُحّت بها أصواتنا ذات صباح

فى شقوق الأرض غابت، أرضنا العطشى

وذابت فى تلافيف الجراح

وأفَقْنا

فالثرى المخضوب حنّاء وأفراحٌ وساح

والندامى سكروا من غير راح

والذى يبرق فى الأيدى سلام أم سلاح؟

نحن أغمدناه فى أحشائنا

ورقصنا رقصة الموت على أشلائنا

وغرزناه وئيدًا فى الحنايا.. فاستراح

حين فتشنا عن الراية..

لم نخرجْ على القول المباح!

* * *

أيها القادم، فى عنف قطار الموت،

رفقًا بالوجوه المتعبة

نحن جرَّبنا كثيرا

وابتلعنا خيبة الوهم حسيرًا، وكسيرا

وتعلقنا طويلا بذيول العربة

فى الغبار الأسود الملعون نرتدُّ،

وفى وجه الليالى الجوف،

فى دوامة الصمت الحزين

ودهاليز الرؤى المضطربة

لم نفارق وتدًا شُدَّت إليه كل أعناق القبيلة

لا، ولم نسأم أفانين هتاف الكَذَبة

لا، ولم نبرحْ مكانًا نحن فيه من سنينْ

همل من غير حيلة

هذه الأعناقُ ديست، داسها عام وعامْ

لا تكنْ أقسى

فما فى منزع الصبر بقية

لا، ولابعض إباء فى عروق الرقبة

أيها القادم، فى عنف قطار الموت، تطوى كل شىء

المدى، والعمر، والأحقاد، والصمت المهين

دامعًا وجه الليالى بالجنون

خفف الوطْءَ، فهم موتى

وهذى أرضُهم مغتصبة!

عندما يغلبنا الأسى

أهكذا يمرّ عام؟

وتنطوى الأيامُ فى لفائف الأيام

نصحو،

فلنقاك بعيدًا حيث لا صدى ولاسلام

وثَمّ ما يشغلنا

يُلقى بنا فى قبضة الزحام

أهكذا يسرقنا المنام؟

---

* فى الذكرى الأولى لرحيل الإذاعى الكبير عبد الحميد الحديدى.

ويستحيل وجهك النبيلُ بعض طيف

يعبرنا فجاءة فنرتجف

نلمحُ فيه من بريق مقلتيك جذوةً لم تنطفئ

ومن حفيف صوتك الأنيس رنّةً تُلامسُ المكانْ

ومن صدى خُطاك قادمًا تهلُّ، واندفاعة الصغار

تذيب فى أحضانهم هوى مدبَّبا كَسيِّف

سرعان ما يفيض بالحنوِّ والأمان

نلتفُّ فى عباءة الشتاء حول ركنك الأثير بيننا

وعندما نُشعل من مجامر التذكر المرير دفء ليلنا

يغلبنا الأسى، نحار كيف نبتدئ

ونملأ العيون بالدموع والكلام!

الآن حين يعتريك زهو فكرة تضجُّ بالشرر

وينذرُ الحديث بالخطر

تُرى من الذى تجيل فيه سيف فطنتك

وتنتقى من فورة الألفاظ ما يضئ فيض حكمتك

ويدمغ المحاورين بالحَصَر!

الآن مَنْ يُنجيك من بُرودة الصمت الثقيل مطبقا

وقابضا

أم يا ترى يروق لك

وقد بعدت عن سفاسف الحياة والبشر

واستسلمت عيناك للخدر

واقتحمتْ سَكينةُ الرَّدى خُطوط سحْنتك

تخفى الذى يمورُ فيك من مكيدة القَدرْ

منسحقا تحت سنابك الرضا

هل ثَمَّ ما تراهُ غامضا

أم أن دورة السؤال خاطرٌ عَبرْ

يُفضى بنا إلى القضا

ولا مفر!

* * *

يا سيدى هلاً تخفّفْتَ من العبء الذى كم أثقَلك

وأنت تتشُدُ الكمالَ والمُحال

حملته،

وليس فى يديك غيرُ قوت يومك القليل

وفى جبينك التماعة الشرف

وفى فؤادك العصىّ همّةُ الرجال

لكنه الدربُ الذى يختارُه المسافرون فى الحلَكْ

نفوسهم من فوقه تسيل

يشدُّهم توهج اليقين والهدف

وحينما تلتفتُ العيون

ونستدير باحثين عنهمو ذات مساء

ليسوا سوى حكايةٍ تُقال

حكاية بلا مثال

عن فارسٍ مُعاندٍ هلك!

في حمى رامتان

وأطرقتُ أصغى لهمس الظلالِ،

وصوتِ الزمان القديم

وفى الأفق بعض روائحك المستكنةِ

بعضُ امتداداتِ صوتك،

بعض شعاعات عينّيك حين تجولانِ فى القاع،

تستشرفان خبىء التخوم

الجذوعُ القديمة فى الطين تلتفُّ

* فى ذكرى عميد الأدب العربى الدكتور طه حسين.

بوحُ العطور يموجُ،

العصافيرُ تعلن عن موسم الخصْب،

تفضح أسرارها وتغادر خلْف الغيومِ،

أنا سائرٌ حيثُ كانت خُطاك تُصلى

وسمعك يلتهمُ الكون،

وقع أصابعك المرهفات انتفاضًا وقبْضا

عُزوفًا وأنْسا

تجوبُ مدار النجوم

تلامسُ وجه المكان، تطوّفُ فى سحنةِ الكائناتِ

تطالعُ هذا الوجود الدميم

وأطرقتُ،

هذا الطريقُ النحيلُ المُدمَّى

يؤدّى إليك،

ويُفضى إلى قلب مصرَ

إلى عالمٍ فيك سمحِ الأسارير،

مُشتعلِ الحسِّ،

صافى النَّسيم!

* * *

تُراكَ استحلت، كما كنت فى البدء ظلاً وجمرة

وطوّفت تشعل فى الكائناتِ رياحَ الغضبْ

وتنزع فى مهرجان الطقوسِ ثياب التنكر والأقنعة

وتسكبُ فى مسمع الوادعين

عويل الأيامى وجوع العرايا

وتقطف من شجر البؤس شوك الأسى والتمرد

وتنشر للسابحين وراءك حبل التواصل والأشرعة

وتقذف باللهب المستثارِ جدار المعرّة

فلا أنت تهجعُ فى المحبسيّن

ولا أنت ترتاع خَوف المنايا

وطاغوت من ولغوا فى الرزايا

ولا أنت بعض سطور منمقة فى زوايا الكتب

تراك استحلت كما كنت فى البدء نارًا وثورة!

* * *

لمحتُ الذين أحبوك جاءوا

وبعضا توقّفَ

كيف العبورُ إلى شاطئيك، وأنت الرحيبُ المدى،

شاخصٌ كالعلامة

وبعضا توهمَّ أنك فى حكمة الشيّخ،

تصفع حمق ادعاءاته،

وثرثرة اللغو إذ يتشادقُ،

أَنَّى له أنْ يطالع سمتك، هذا العتىَّ الصرامة

وبعضا من القوم حمقى،

يظلّون أسرى دهاليزهم،

يرودونَ دربَك فى عتمّةِ الليل،

يستشعرون فجاءة لفُحتك الطاغية

يذوبون،

ينكمشون،

يظلّون خلْفَك أسرى حيارى

هو الضوء يسطعُ، كم يُنكرون!

هو الليلُ يزحف، كمْ يعمهون!

وأنت، تُساقطُ حكْمتَك الغالية

وتغفر للقوم أنْ أسرفوا

وجازوا ببابك لم يبُصروا

ولم يعرفوا زهرةً كنت تعشق أسرارها

ولا بارقًا كنت تغرسه فى ثنايا كتاب

ولا وطنًا كنْتَ توغلُ فيه بقلب صديعٍ

وفكر منيع

ويُطوى زمانٌ،

ويأتى زمانٌ

تظلُّ عروقك فيه تشبُّ

يظلُّ شعاعك فيه يجوسُ

ويغمرُ كلَّ القرى والنجوع

ويأتى على الدرب خلْفك من طين مصر جموعٌ،

وتأتى جموع!

سكن العبير

سكن العبيرُ وأطرق الصمت

والروض لا ظلٌّ ولا صوتُ

وعلى الثرى آثار أغنيةٍ

عبرتْ وغال صُداحها الموتُ

مزق من الذكرى، يلاحقها

نايٌ شتيت راح ينبتٌ

---

* فى رحيل الشاعر فوزى العنتيل صاحب ديوان عبير الأرض.

وحــــداء أقـــوام قـــد اغـــتـــربوا

عن نجـعـهـم وتبـاعـد الســمتُ

جـــاءوا غـــزاة، فـــاتحى مـــدنٍ

صـمـاء عـشّش فـوقـهـا المقْــتُ

طحنتـــمـــو الأيام وانسكبـــوا

فـــوق الثـــرى، وتنـاثـر الـزيتُ

يا ويلهم خـــرجـــوا بما ملكوا

ومـــضـــوا، فـــلا وطن ولا بيتُ

من حـــولهم جـــثث مُحنَّطة

الشـــعـــرُ فى ألـواحــهـــا نحتُ

إبصـــارهم ـ لو أمـــعنوا ـ عَمَـــهٌ

وبلوغـــهـم ـ لو أدركـــوا ـ فـــوْتُ

إن يُســـرعـــوا فلكلّ مـــائدةٍ

وعن الخنَا أقـــلامـــهـم صُمت

أو يهـــتـــفـــوا فلكل بـارقـــةٍ

ولكلٌ قـــولٍ عـندهـم وقـــتُ

فــسَدَ الزمـــانُ بهم ومن عَجبٍ
لم تنفــد الأســمــار والتَخْتُ
وأراك بينهــمــو شــهــيــد هوى:
«أنا من صــمــيم وجـودكم جـئتُ
من قــرية فى الـقــفــر نائيــة
عــذْراء فى آفــاقــهــا طرّتُ
وفضضْتُ ختم السر عن فمها
فــتكلمت لُغـــتى، فــغنيتُ
بعــبــيــرها صلّيتُ مُنتــشــيًا
وبســرها المهــتــوكِ أُنطقتُ
دمـــع وآهـــات وأتـــربـــة
وصـــدى أيَامَى فـــيـــه ضُمّختُ
وجنازُ بكائين مـــا عـــرفـــوا
غــيــر النواح، بركْبــهِ ســرتُ
وحـملتـهـا فى القلب، وانطلقتْ
كــفىٌّ تُزيح الســتــر فــارتعتُ

في رحلة الكلمـــاتِ قــاتلتي

إني نطقْتُ بهـــا فـــأذنبتُ

وعــصــيت لكن لم أخن أبدًا

وخُذلْتُ لكن مـــا تشكيتُ

ونُفيتُ عن جَلدي، ومـا علموا

أنّي عن الصـــغـــرى ترفَّعت

حسْبي إذا حُشدت سهامهمو

أنّي على يدها تكســـرتُ

وجُهلت، لكن حسبُ ذاكرتي

أنـي لطيـن الأرض عُرْفتُ»

* * *

الآن ترجع غـصنَ باسـقــةٍ

فـرعــاء هَوّم حـولهــا النبتُ

سكن العـبيـرُ وأطرق الصمتُ

والروض لا ظل ولا صـــوتُ

كم أنت قـاسٍ أيهــا الموت!

كم أنت قـاسٍ أيهـــا الموت!

الرحلة اكتملت

نجوسُ خلال الحروف،

نحاورها ونراك جديدًا تهلُّ علينا

تُساقطُ حكْمَتك الموُجعة

نضيع وراء الزحامِ، يفاجئنا الصوتُ، صوتُك،

نعرفُ طعمَ نداوته،

وحدودَ رحابته،

نتلاصقُ،

---

* فى رحيل الشاعر صلاح عبدالصبور.

ندركُ أنَّ الحياة امتدادٌ وأنَّ الخطى واسعة
يداهمنا الحزنُ، نعشو إليك،
ونلقاك في آخر الدرب، تسكبُ فينا الصفاءَ
وتمنحنا اللَّفتهَ الوادعة
ومنْ لك حين تجوسُ،
وحين تضيعُ،
وحين يصاولك الحزنُ،
حين تفتتك الكبرياءُ،
ومنْ لك حين تميل بك الأرضُ،
تهتزُّ من حولك الكائناتُ،
تدورُ بك اللحظة المفزعة
وتدركُ كمْ أنت، يا للأسى، عاجز وشريد
وأنَّك حين اتكأت تهاوى الجدارُ الوحيد
وأنَّ الذين تؤمّلهم للزمان عُراةٌ وجوعى
يلوذون في كلِّ بابٍ،

وترتدّ أشباحهم ضائعة

فبرق الأمانيّ باطل

وهذا الزمانُ المراوغ قاتل

وهذا الأزيزُ يطنُّ بأذنيك، ينهش صدرَك

يفرّي حشاياكَ، يُعلن عن مقدم الفاجعة

تُراكَ احترقتَ بأحزان غربتنا الموحشة

فأطلقت رُوحك من ربقة الأسر،

من أسَن الزمن المستعاد،

وآثرت أن تستدير لتُكملَ رحلَتك المدهشة

تعودُ إلينا، كما عُدت دوماً، بصيدٍ وفير

وحزن كبير

ودمدمةٍ تقرّعُ الهاجعين، لينفجروا أو يموتوا

وعينين تستشرفان جسور التطلع للمستحيلْ

ويقدحُ زنداهما بالشرر

يضئ ويقتاتُ من زيت هيكلك المستباح

يردُّ الطعان ويعتادُ نزْف الجراح

ويخلع أقنعة القهر، يُفضي بنا للصفاء الجميل

تكاشفنا بالغرائبِ من كلّ زاد حملْتَ

وسِحرٌ ليالٍ تخطّفهن الزمانُ البخيل

وتخرسك الطلقةُ الطائشة!

* * *

تراك اعتزْلتَ،

توحّدتَ لما تقصَّيتنا

وعرفتَ مدانا

وأدركْتَ أنَّ الغيومَ اللواقح ليست تُخبّىءُ إلا الجهامة

وأنَّ الذي سوف يأتي عقيم

وأنَّ الكلام المباح نباح

فيا فارسًا دون درع وتُرّس

ويا سندبادا بغير قلاع

ويا ملكا عرشهُ الليلُ والشعرُ والأصفياء

ورِوادُ ساحته الأذكياء

تطفّأ نجم وأخْلف أُنس

وعشّش في الساحةِ الأدعياء

فَمن للسّقاة ومن للندامي ومن للمريدين والأصدقاء

وقد كنت تسقيهمو من ودادك

وتملؤهم باضطرامِ الحياة

وترفعهم حيث أنْتَ،

وتبقي بعيدًا، فريدًا، بلا نُظراء!

* * *

ها أنت زمان للشعر، وعمر للعشاقِ

وعطر تغمرنا سقياهُ

ها أنت زمان للشعر،

نطالعُ أخر حرف فيه،

ونغلق صفحته، فتفاوحنا رياهُ

نخلع أنفسنا منه،

نُعاود كرَّ الطرفِ،

ونبعُد عنه لعلَّ العينَ تراهُ

لكنَّا حين نفيقُ، نراك، فلا تخطئك العينُ مُسجَّي

ندنو، نتحلقُ من حولك تتأملنا، وتُصنّفنا

وتردُّ الكاذب عن بابك،

ترفضُ أن تُصبح موسمَ لغْو أو بهتان

تتململُ حين يلاحقُ سمْعَك زيفُ القول

تزياً صورة إنسان

ترفع عنَّا جبهتك المثْقلة المهمومة

مذبوحًا بفتون العشْق

مقتولاً بسياج الحكمة

محمولا حيث تغيبُ شعاعة ضوء طافية فوق الماء

تُبحر في نهر الأحزان!

عابــرة

مـن أنـتِ؟ لا أدرى، ولا مـن دلـيل!

يا ومـضـــة تُعـشى فـؤاد الـكليل

ولفـــحـــة توقظ فـى خـــاطـرى

كـوامن الـعـمـر الـقـصـيـر الجـمـيل

عــيناك فـى عُـمـقـيـهـمـا عــالم

خـصـب الرؤى، عـاتٍ، حـفـىٌّ ظليل

تلقـــفنى فـى بـغـــتـــتى نـظـرة

أدرك فـيـهـا وقـــع خـطـبٍ جلــيل

كم حـــاورتنى صـــامــتًا مُرغــمًا

يقــتلنى هذا اللســان الخــجــول!

كم أقلقت فـىَّ سـكون الـدمـى

واقـــتلعت منى الرضـــا بالقليل

وأغـمــدت فى خـافـقى نصلهـا

وافـرحــتى، إنى الطعين القـتـيل

مـا أهون العـمـر: حصـادُ الصبا

ولىّ، ووافـــانا الزمـــان البـــخـــيل

وأهـون القـلـب، تـفـــــور المنـى

من حـــوله، وهو الأســيف الملول

وأهـون الســاعـــات مـــخنوقـــة

يملؤها ســافى الغـــبـــار المهـيل

وأهـون اللقـــيـــا إذا أســمــحت

فليس من مـــأوى ولا من ســـبـــيل

نظل منبـــوذين، يقــــتــــاتنا

لفح الفـــراغ الموحش المســتطيل

لو تملك النفس حدود المنى

لو يعرف القلب شفاء الغليل

إذن لطامنت الخطى، وانتهى

ومض سراب خادع لا ينيل

ولاستراحت فى بحار المدى

أشرعة مشدودة للرحيل

من أنتِ يا نجما بعيد المدى

يسقط فى قلبى كعبءٍ ثقيلْ

عبء يشد الروح أنى سرت

مرتجّةً تحلم: أين المقيل؟

نصل رهيف الحد مسنونه

فى عمق أعماقى حثيثا يجول

لفح كعصف الريح فى ذرّهِ

ما حُمّلته كاسيات الفصول

سرب من الأحلام مذعورة

ولّت وفى الآثار منها فلول

مـن لـى بمـن يشـــعل هـذا الدجـى

ويمـــلأ الـزيت ويـرعـى الفــتــيل؟

عـــاتيــــة الإيـقـــاع: جُنٌّ اللظـى

واستيقظ العمـر الوشـيكُ الأفـول

مـن أنــتِ؟ لا أدرى، ولا مـن دلـيل!

غيبى إذن، في زحـمـة المستحيل!

صـــورة

تعالىَ..

فهذا زمانُ التقنّـع،

عصر انتهاء البراءة

تعالىَ،

أكاذيبك المشتهاة، لمثلىَ زاد،

أفيضى،

أعيدى وزيدى،

ففى السمع متّسع ما يزال،

وفى القلب جرح يقطرٌ ماءه

وأنّى اتجهتُ

صداكِ المجلجلُ يزحم كلَّ الزوايا

يلاحق كلَّ الدروب،

يساقطُ فوق البرايا غطاءه

فينغمس النور فى الظلّ،

يختلط الصبح بالليل،

تصبحُ كلُّ المرايا.. حكايا

ويصبح سيين: تصديق ما تدّعين

وتكذيبُ ما تصّدُقين

فأنت عجيبة هذا الزمان

وهذا الزمان بكفّيك يوغلُ عبر التخوم الكئيبةِ،

عبرٌ النفوسِ الشحيحةِ،

عبر السنين الجديبة، يرجو شفاءه

تعالىْ

ففى العمر متسع للفضول

وفى النفس مستودع للإساءة!

* * *

ومثلكِ، مصّاصة للدماء!

تشكّلت من أى طينٍ

وأُلبستِ أَىَّ إعوجاجٍ

ووُسّدتِ أى وسادة!

يحارون فى هودج تخطرين

بطيّاته، عندما تعبرين،

تفوحين،

تلتمعين

وتنعطفين،

فليس لما تصنعين انتهاءٌ،

ولا للذى تشتهيه العيون زيادة!

وأَعجبُ

كيف احتيال خُطاكِ

وكيف العيون، كعينى، تراكِ

وكلُّ الأصابع، مثلى تشيرُ

وكلُّ الوشايات تنثال سُمّا!

وتنثال رجما..

ولكنهم سُلبوا فى هواك الإرادة!

وأَعجبُ

هل أنتِ كلُّ النساء؟

وهل أنت أصلُ البلاءِ؟

فمثلكِ أعطى الزمانَ فساده!

لغة
من دم العاشقين

بيت فوق شجرة

كانت شجرًا، ينمو فىَّ، وأنبتُ فيه

تلتفُّ الأغصان بروحى،

يفرخُ طيرٌ بين حنايا القلبِ،

ويورقُ عمرٌ،

يسقطُ ظلٌّ

تعشبُ أرضٌ، كانت عطشى،

كانت تقذفُنا للتّيه

هذا العمرُ المجدولُ نَما

يُنضجنا لفحُ الشمْس،

وتضفّرنا سنواتُ القحطِ،

ويترعنا نبْعُ السقْيا

نتشكلُ عبَر جذورٍ موغلةٍ،

نطلعُ فى ساقٍ واحدةٍ،

نتفاوحُ من أكمامِ الزهْـرُ

هـزّى جذعًا،

إنّى أساقطُ،

إنَّا نساقطُ رطبًا وعناقيد

ميلى غصنًا،

إنّا حين تشابكت الأيدى،

وتشابكت الأيامُ،

تداخلت الرُّؤيا..

نهرًا يتفجرُ بالخِصب

وشمُوسًا تسطعُ فوق حقولِ القمح

ودروبًا تُفضى، لمسالكَ تُفضى، لمدىً يمتدّ

ومدائنَ تعلو..

لايدخلها إلا المختومون بوشْم الحبّ

كانت شجرًا ينمو فىّ وأنبتُ فيه

لانعرفُ منْ منّا الغصنُ؟

ومن منًّا الأوراقُ؟

ومن منّا الثمرة؟

تقطعُنا، لو تقصِفُ غُصنًا

تنزعنا، لو تقطعُ جذْعا

تشربنُا،

لو ترشفُ قطرة طلٍّ ذابتْ فوق جبين الشجرة

فلماذا نخشى يومًا

أن تذبل هذى الأوراقُ؟

وأن ينكسر الغصْنُ؟

وأن يرتحل الظلُّ وينأَى

والشجرةُ فينا مزدهِرة!

* * *

هذى خطواتى الأولى، تمرقُ فى الطين، وتوشك أن تتعثّرَ، أسقطُ، ثم أعاودُ، وجهى لايفصح عن هدف، ويداى معلّقتان بغصّن، آه.. مغلّلتان بوعد، يفلت منى، لاضيّرَ، تشبثتُ بآخرَ، عاودّتُ الخطْوَ، الطينُ يلاحقنى، الطينُ بيوتٌ وسراديب ووحشةُ ليلٍ متكئة.

وأنا فى الظلمة مشدودٌ، لمصير مجهولٍ أمضى، لنداءٍ ناءٍ يترددُ، لحقول تملأَ أنفاسِى بروائح ليلٍ يتوالد، أشباح تُقمى فى المنعَطف وفى السّاحاتِ تراوغُ إذ تتمطّى، وهى تطول، تسدُّ الأفق، ويصبحُ حجمُ الخوف بحجم النّخْل، ولونُ الرعب بلوّنِ اللّيل، يشقُّ عُيونًا منطفئة!

أبحثُ عن مأوى يعصمنى

عن لونٍ أخضرَ يجذبنى

عن عُشٍ فى شجر الزيتونِ، أُلاصقُهُ ويُلاصِقنى

نتداخلُ، فالكونُ عِناقٌ..

نتناغَمُ، فالموسيقى هسْهسَةٌ تعْزفها الأوراق
نتواصلُ، فالدنيا ـ لا أبْهى ـ
والعمر الآمنُ ـ لا أحلى ـ
وترفُّ خْطاىَ المبتدئة!

* * *

الآنَ يدورُ العمرُ،
ويُفصِحُ عن دوْرته،
يفجؤنا عرىُ الأشجارِ،
ولون الخضرةِ شاحبةً،
ونضُوبُ الماء...
نتساندُ.. أَحْوجَ ماكنّا
نتلاصقُ، أبْعدَ ماصرْنا
وتغرّبْنا
تُنكرنا عيْنُ الأرض،
وذاكرةُ الأسماءْ

فلمن أتَّجهُ؟ وتتَّجهينَ؟

وهذى الأرضُ تظلُّ تُلاحقنا حتى الموت

قدرًا مشدودًا، يُوغلُ فينا

لاتُخطئهُ العينُ، ولا يُخطئهُ القلبْ

والعمرُ رهانٌ.. أن نحْيا فيها،

نجعلَ منها زمنًا للحلم،

دُرُوبًا للذكرى،

وعْدًا للموت..

العمرُ رهانٌ،

أنْ نُنْبت فيها شجرًا ملتفًّا، لانُحْصيه

العمرُ رهانٌ، أن نجعلَ منها زمنًا

ومكانًا... لايقذِفنا للتّية

شجرًا يَحيا فينا، نحْيا فيه

شجرًا ينْبُتُ فينا.. وطَنًا!

جاء عصر الشتات

أُحبُّكِ

كلُّ الكلام مُعادٌ،

وكل الحكايا بلادٌ

سُجنت بداخلها،

واصطدمتُ بحاجز عزلتها

واغتربتُ وراء دهاليزها

واشتهيتُ زمانًا

له جرأةٌ وامتدادُ!

* * *

أحبُّكِ

واخجَلى حين أهتفُ باسْمكِ

كلُّ النداءات لغوٌ تكرَّرْ

وصوتٌ قديمٌ تناسخه العابرون

وعُرسٌ تقلَّص ضوءُ الذبالة فيه

وعشَّش وجهُ السوادْ

فكيف أُوافيكِ فى سِجْنةِ الآخرين

وفى لُغةٍ من دمِ العاشقين

وهذا دمى فى شعاب البلاد

يسيلُ انتحارًا وعشقا

ويُومض فى جَلواتِ الشروق

وينسلُّ فى لغةٍ تتخلَّقُ عَبْرَ المنافى

وتمرُق من رحمِ القهْرِ

من قبضةِ الذكريات السجينةِ

من زخرفاتِ الطقوسِ العقيمةِ

تُفلت من أسنٍ فى الحلوقْ

وترمى بنا فى خضمٍّ ليالى الحِدادْ !

* * *

أحبُّكِ

كيف اصطخابُ الرياحِ

وكيف اعتناق الصباحِ

وكيف اشتباك الرماحِ

وكيف انخلاع القلوبِ

على ومضةٍ من ثنايا الشررْ

وكيف اندفاع الغريقِ

يُطلُّ على حافة الموجِ

يرفع رأسا

وينهارنَفَسا

ويثوى على صخرةٍ فى شعاب المضيق

تلاطمها دمدمات الرياح!

* * *

أحبُّكِ

ضاقت بساكنها الكلماتُ

فلم يعد البيتُ مأوى

ولا الحُلم ظلا

ولا الزمن المُحتوينا مساحة

ولا الوعد متّكأً للحزانى

وقد جاء عصر الشتات

فهل تسعف الذكرياتُ

وحيدَين

يُثقل رأسيهما الأَسنُ المستعاد؟

وهل تسعف الصبواتُ،

نداءاتِنا،

حين يرتجُ خفّقُ الزناد

يدوسُ على لغتينا السلاحُ

فيخرس صوتُ الكلامِ المباحْ!

* * *

أحبُّكِ

مازال مُتسعٌ للوقوفِ

ومتسعٌ لاختيارِ الحتوف

ومأوى

لمن يؤثرونَ العراءَ

على لغةٍ فى ظلال الكهوف!

ومأوايَ أنتِ

تشعبت حول سواحلك العنبريةِ

جاوزتُ أحراش ليلكِ

تاخمتُ خلجانَ بحّركِ

كشّفْتُ أصدافكِ اللؤلؤيةَ

حلَّقت عبّرَ التخوم

وطوَّفت بالشعب المرمرية

ومازلت عبر السواحلِ

أرقبُ سيّلِ القوافلِ

أرتاد شِعْبَ المجاهلِ

أرجع بالتحف الموسمية

وأجتاز نحوك

كلَّ المسافات

أعبرُ كلَّ الصفوف!

* * *

أحبُّكِ

أصبحت الكلمات منافىَ

واللغةُ المستعارةُ سجْنًا

وأقنعة الشعراء طلاسمْ

فكلُّ الكلامِ معادٌ

وكلُّ المنافى بلادٌ

وكلُّ الحشايا سهادٌ

فلا تَسْمعينى!!

الحب.. قرار

أجتازُ وجوهَ الناسِ، رخامَ الناسِ، إليكِ، وأصطدمُ

أخطو،

أتحسسُ دربًا

يمتدُّ، يباعدنى، ويُقرّبنى

أتلمَّسُ فيه مكانا وزمانا

مأوى،

نتلاصق فيه، ونقتسمُ

أقربَ ماكُنتِ،

وأبعدَ ماجازفتِ،

يظلّ العبءُ أنوء به وحدى

وينوءُ به جَلَدى

وندائى محْضُ صدًى

لايُمسك شيْئًا منكِ، ويُفْلتنى

فلمن أتجهُ؟

مداراتى تجفوها الشمسْ

ينطفىء على أبواب مشارفها النَّجْم

يتراكُم فيها الليلُ الجدْب

وخطاىَ تسوخُ،

ولكنى

أجتاز وجوهَ الناسِ، زحامَ الناسِ، إليْكِ، وأصطدمُ

وشعاعٌ منكِ،

ألاحقُه وأطاردهُ،

أَنْسى أنى شارفتُ تخومَ الرعبِ،

واقتحمُ،

فيضئُ القلبْ

يملؤنى زهوٌّ

يملؤنُى أنى بهوانا متَّهمٌ!

* * *

ها، أنتِ يُطل علىَّ، على أفقى..

الوجهُ المأنوس

تتفتتُ غيماتُ الحزنِ وترحلُ، لاترحلُ،

تحتجبُ وتنأى

تسَّاقطُ شجْوًا وتجوس

أستجمعُ ما أبقتهُ بكفّىَّ الأيامُ

وماغرسته بعينىَّ الأحلامُ

وأنثرهُ فى مقْدم موكبكِ المجلوّ

يرفُّ قطوفًا وفراديس

من ينزع من ذاكرة الليل زمانًا مثلَ الأسطورة؟

وشعاعيْنِ التقيا من بعد شتات الغربة والتطواف؟

وكما يعتنقُ النجم اعتنقا

وكما يحترقُ الجمر احترقا

وكما يختنق الورد اختنقا

غرقا فى ذوْبِ السّحرِ المرصود

ذابا فى مسرى الوجدِ،

وفى جَلوات العشقِ،

وفى وهج الأنفاسْ

غابا فى نشواتِ الحُلْم،

وفي فلك الأقمار المنسيّة

غابا عن كلِّ الدنيا، عن كلّ عيونِ الناس

فالليلُ ضفافٌ مشهودة

والعمرُ خيوطٌ معدودة

تفلتُ من أيدى الحرّاس!

* * *

يتشققُ منَّا الجلدُ،

ويصبحُ وجهُ الجلدِ أخاديد

عطشًا يتشققُ

يزدحمُ ركامُ العمرِ، العمر الموحشِ منكِ، تجاعيد

وغضونا تزحفُ، لاتشفق

حتى ينفجرَ بنا الوعدُ المأمولُ

وترتجُّ الصبواتُ،

ويدفَعنا طوفانُ اللحظةِ... للمجهول

يتبدلُ وجهُ العالِم،

وجهُ العالِم ما أقساه!

نتعاهدُ ثانيةً

ألا نُخلفَ حلمًا

أو نقتل وعدًا

أو نُسقطَ زمنًا

من غير أمانٍ عشناه..

نتعاهدُ: لايخذلُ واحدُنا صاحبَه

فالكون ملىء بالخِذلان

سيمرُّ كثيرًا هذا الوقت الفارغ منكِ،

وهذا الزمنُ المولع بالإنكار

وستعبرنا هذى اللحظاتُ المخنوقةُ فى التكرار

والظمأِ القاتل فى الصحراء

لكنا ندرك أنَّ زمانًا بعْدُ، زمانًا بعدُ، لنا

نتوقفُ فيهِ، نُريحُ لُهاثَ العمر

ونُحدقُ فيه، فيبهرنا أنا أحياء

نمتلكُ الحلم، وأن نحلم

نملك أن نبنى أو نهدم

زمنًا..

لايجرفنا فيه التيار

نتدافع من فوق الموج،

ونقفز من فوق الأسوار

وننادي:

ياأحبابَ الأرض ويا أبناء التيه

الحبُّ دثارٌ

الحبُّ شعار

الحبُّ قرار!

يحدث أنْ

يحدُث أنْ نتلاقى ذات صباحٍ أو ذاتَ مساء
نتوهم أنّا، مثْلُ الناس،
لنا بيتٌ وغطاء
وزمانٌ نبحرُ فيه،
وتُقلع فيهِ الأيامُ الصّدئة
والروحُ المنخوبة بالإعياء
ومرافئُ نرتاح إليها،
ونرصُّ العمْرَ المكدود

نقتحمُ زحامَ الأرصفةِ المهترئة

وضجيجَ المدنِ المسعورة

نتوهم أن مكانا يشملنا .. يغدو كُلَّ العالم

ونداءً يجمعنا .. يصبحُ كلَّ الأنغامِ، وكلَّ الأجراس

وطريقًا يمتدُّ ويفضى

لاسِفْلة فيه ولا حراس

يتخطفنا حُلْمٌ مجلُوّ

تتشابك أيدينا،

تتلاصق فرحتنا المرورة

ونُحلّق فوق مدينتنا

ونطلُّ وراء نوافذها المنطفئة

ثَمّةَ مأوى..

دفءٌ يفترشُ الجدرانَ ويُقعى فى الأركان

ثَمة أبخرةٌ،

أنفاسٌ حرَّى متكئة

وسعارٌ ضارٍ.. مزهوّ

يفترس شعابًا تتلوى

فنعودُ برؤيا... منكفئة

تتلمّسُ أعراسَ الأضواء!

* * *

يحدثُ أنْ نتصادمَ فى سجن الظلمة

يقفز كلٌّ منا مرتاعا فى وجه الآخر

وكأنْ أصبحنا، لاندرى كَيفَ! نقيضينِ، وشتيتينِ

اللغةُ اختلطتْ،

والعينُ انطفأَتْ

والشوقُ المكتوم انحلَّ

وصار الوهجُ الدّامى.. ماءَ

ساعتَها،

يدركُ كلٌّ منَّا عمق الخيبة

ويُحدّقُ كلٌّ منا فى وجه الزمن القادم

تَلْفُّنا رعدةُ يومٍ عاتٍ مجهول

وفُجاءةُ موتٍ محتوم

ونهايةُ حلمٍ يتهاوى فى قلب اللُّجّةِ أشلاءَ

ونظن بأن الكونَ مؤامرةٌ،

والشارعَ مذبحةٌ،

والعُرىَ الفاضح مقتلنا، وخطيئتنا!

فلنطرق جَوْعَى غرباءَ

ولنحمل مِلءَ حقائبنا زادًا مسمومًا، وبغيضًا

ولنلعن - ملْءَ حناجرنا - كوْنًا متسخًا ومريضًا

ولنطلق فى كلِّ مخاضة

طلقاتِ الثأر المحمومة

تجتاحُ الأيامَ الجهمة

تقتلعُ مسوخ الظلّ

انتصبوا فى قلبِ الميدان

واقتلعوا العيْنَ المبهورة

فلعلَّ الكون ـ بأعينهم ـ يمتدُّ فسيحًا وعريضًا!

هانحن نُبادرهم بسياط اللعنة،

تتصبُّ جحيمًا كالبركان

نخرجُ من بين مسامِّ الجلدِ،

ومن شهقاتِ النفْسِ،

ومن صرخاتِ الرؤيَا المذعورة

نتلمسُ، بعدُ، يقينًا كانَ،

وحلمًا كان،

وعُمرًا غضًّا مختَلَسا

من قبضة قضبانِ السّجان

وتعودُ، فتلتمعُ الصورة!

خطوط فى اللوح

(أ) رباعيات:

بيّنَ وقْعِ الظلِّ، والظلِّ، يميلْ
رأسهُ الغاربُ فى كلِّ اتجاه
والدمُ القانى على الأفق يسيلْ
مُعلنًا بالموت، ميلادِ حياة

* * *

طائرٌ حطَّ على الغصن وطار
حاملاً فى صدره سرَّ الرحيل

ماله يبحث عن وجه نهار

يُرجع الحُلْمَ إلى العمرِ الجميلْ

* * *

الجناحان يرفّانِ.. فيعلو

والجناحان يُسفَّانِ.. فيدنو

روضهُ الهامدُ إجدابٌ ومَحْلُ

والمدى حوليْهِ إيحاشٌ وسجنُ

* * *

يقطعُ العُمْرَ، ويجتازُ الوهادْ

حائرًا بين صعودٍ وهبوط

رأسهُ الطائرُ ملقًى فى البلادْ

ويداهُ فى شعابِ الأخطبوطْ

* * *

ذاتَ يومٍ قادمٍ سوف يجىءْ

باعثًا فى كونه سرَّ الخلودْ

روحُه تنبضُ بالحُلم الجرىء

وخُطاه تكتسى معْنى الوجود!

(ب) **الشَّرَك:**

تجيئين فجأةً

تغيبين فجأة

وقبْلَ المجىء المفاجئ

وبعدَ الرحيلِ المناوئ

تظلينَ فى القلب توْقًا إلى ظلٍّ هدْأة

وجُوعا لحضْن المرافئ

متى أيها الوجهُ تسفرُ عن وجْهتك؟

متى يستريحُ المسافرُ من دورانِ الغبار

ومن وخَزَاتِ الليالى

وجَدْبِ النهار

ومن شَرَكٍ كامنٍ فى المدار؟

يلفُّ خُيوطَ الأمانى بأعناقنا

فتقتلُنا مرَّتين:

فيومًا

لأنَّا حلُمْنَا بها، وانتظرنا

ويومًا

لأنَّا خُدعْنا بها، واغترينا

وما ثَمَّ شاطئ!

* * *

متى يا أنيسِ الزمانِ الجميلِ،

الزمان البخيلِ،

الزمانِ الذى فى الحنايا .. تعود؟

متى، من جديدٍ، يُراوغنا ظلُّكَ المستطيل

فيُلْقى علينَا عباءته،

ونغوصُ،

يُعاودنا وعدُكَ المستحيلْ

وننزعُ من فوْق جدراننا

وجْهَ هذا الوجودِ الثقيلْ

وتحملُنا موجةٌ فى البعيد

لنجمٍ على الأفق يحبو

وخطٍّ على اللّوحِ بادىء

مـد البحـر

(أ) كلمات متقاطعة:

جثم الحزنُ على كلِّ البيوتْ

وتدلَّى من خيوط العنكبوت

وجهُ إنسانٍ،

تُغشّيهِ ارتعاشاتٌ ورعب وابتهالْ

وبعينيه سؤالْ،

جاحظٌ، يهتزُّ فى يأس صموتْ:

ما الذى أَلْوَى بأعناقِ الرجال؟

وأحال الألَق الكامَن فى وجْه العيون

سُحبًا تُمطرُ أحزانًا

وتثوى فى الرمال؟

وتدلَّى.. فدَنا

عارىَ الصدْر.. مُسجَّى

وحواليْه زحامُ الناسِ..

يمضى ويفوتْ

لم تلاحقْ سمْتَهُ عيْنٌ،

ولا اهتزَّ فُضولْ

صوت:

مالنا والشارعَ الصاخبَ!

سارعْ باجتيازِ الوقت مابين رصيفٍ ورصيفْ

واعبر الخلْقَ، فما ثَمَّ مكانٌ

أو زمانٌ لانتظارٍ وعُكوف!

صوت آخر:

يسقط الناسُ،

يقوم الناسُ،

يحيوّنَ، يموتونَ

يجيئون، يروحونَ

غيابٌ وقُفول..

والتزامٌ وعدول..

لا التفاتٌ للذى يجرى

ولا نُبصر إلا مايرى المدلجُ فى ليْل الكهوف

لا، ولا تشغلُنا حتى الحتوف!

صوت أخير:

جثم الحزنُ على كل البيوت

وتدلَّى من خيوط العنكبوت

وجهُ إنسانٍ صموت

وجهُ إنسانٍ يموت!

(ب)ساعديني:

هجَمتْ من كلِّ صوبٍ دمدماتُ العاصفة

والربيعُ الكاذبَ الوجهِ، تعرَّى عن رمالٍ سافيات

وتداعى المجهدون

كلّهُم يحملُ أيامًا وأعباءً ثقالا

ومرايا كاشفة

شقّقتْها أوجهٌ نافذة السهم،

وداستها قلوبٌ واجفة

المدى لايتكشفْ

والأمانى تتقصّف

ويدُ الإعصارِ تمتدُّ وتذرو

كلَّ مافوْقَ الرمالْ

من قصور زائفة!

ساعدينى

وامنحينى من عطاياك.. الذى يُمسك نفسى

ويردُّ النور للعين،

شعاعًا، ووعودًا جارفة!

لست أشكوكِ إلى شيخ القبيلة

لا، ولا أدعوكِ للثأرِ،

ولا أرجوكِ لليوم الذى يفجؤنا من غيِّرِ حيلة!

نحن مطعونانِ، والسهمُ بقلبينا مُدمّى

فاركضى فى الساح ياخيل الهموم

واقْدحى - فى ليلنِا المغلولِ فى سودِ الرؤى -

برْقَ السنابك

واهبطى كالرعد،

فالقوم المرجَّوّنَ نيامٌ

وانظرى:

خلف الخوانِ الضخم أيتامٌ

وفى الباحةِ أضياف لئامٌ

ومع الخيْمةِ أشباحٌ هزيلة!

ساعدينى.. كى أراكِ

نحن فى وجه ليالى الرّعبِ نَسّاقطُ،

فى قلب الشراكْ

كوّةٌ واحدةٌ تكفى كلينا

إن ثقبْناها نجوْنَا

واشتعلنا كالبروق الخاطفة

ساعدينى

ها أنا أخطو،

فتتحلُّ غيومُ الكونِ،

تسّاقط من فيك رضابا وغضب

ها أنا أدنو،

فيندلح اتساع العمر،

حلما، وشبابا ولهب

الربيع الكاذب الوجه تعرّى

فلماذا نتوارى

خلف أوراق الشجيرات العليلة

بعدما اهتزّت إلينا آسفة؟

ها أنا أدنو

وفجر كاذب يمضى

وبعد الفجر تدنو الراجفة

ساعدينى..

إن ينبوعًا من الأسرار لايكفى

وطوفانًا من الأشواق لايشفى

ومدّ البحر لايروى نفوسًا تالفة!

ملامح

يهبطُ حيثُ لاتراه عيْن

مُشتبكًا مع الخطى الوئيدة المباعدة

ونائحًا.. مع المطرْ

منُسربا فى عطش الرمال، والظلال

تسأله حين يغيبُ: أين؟

لكنه، لاصوتَ.. لا أثَرْ

وتسكن الرياحُ فى المفاوز المعاندة

* * *

من موقعى أرتقب الشروق

يدى على نافذة النهار

وجبهتى إلى جدار

وخُطوتى تغوص فى الشقوق

حَلْقى يَغصُّ بالطعومِ والروائح

والنار فى ملامحى تئزّ

والغدُ لاتشى به البروق!

* * *

سألْتِ عن مفتاحِ هذه المدينة

حتى يمرَّ الهودجُ الجليلُ فى أمان

وتهجعى إلى مكان

ينأى عن الممالك الملعونةِ القُفول

ترجَّلى..

هذا الذى يهبطُ لاتراه عين

منتظرٌ بالباب.. يطلبُ المثول!

شاعر الحراب المدبّبة

كانت حرابُكَ الطويلةُ المدبَّبة

تجعلنى على مسافةٍ منْكَ،

فلا أُعاينُ الذى حوِيْتَ من جمال

وكان وخزُك العنيفُ حين تستهلُّ صولتك

مفتتنًا بزهوةِ النّزالِ والمبارزة

يتركنى منْكَ على انتظار

للحظةٍ، يعودُ فيها صفوُك المسكوبُ فى الرجال

* هذه القصيدة والقصيدة التالية في وداع الشاعر أمل دنقل.

ينكشفُ الوجهُ الغضوبُ عن فُجاءةِ الفَرحْ

والجسد النحيلُ بالودادِ يختلج

يموجُ فى الضلوغ صدرك الوريف بالظلال

مُؤانسًا وحانيا

ويصبحُ القلب العصىُّ، فى رَحابةِ الدنيا

وفى تدفقِ البحار

كنوزةٌ مذخورةٌ لكل من عرفْت

شعابهُ طيّعةٌ لكلٍّ من حَملْت

رحابهُ سقيفةٌ وبيت

لكلٍّ من صحبْت فى ممالك الليلِ،

وفى أقبيةِ النهار!

* * *

نتحلّقُ حوْلكَ،

نشهدُ كيف تذوبُ، وينطفئُ النجمُ الموعودْ

تتفلّتُ من بين أصابعنا

نَفَسًا، نفسا

تتسرّبُ من بين شواغلنا

قبَسًا، قبسا

نرتاعُ ويصدمنا الهولُ المرصود

نبتعدُ، فيطوينا دورانُ اليومِ، وننسى

حتى يرُجعنا التطوافُ إليكَ

ونُقعى حوْلكَ،

تتأملنا، وتُصنّفنا

تقرأ فينا جيشان الدمع المخبوءِ،

تطالعُ فينا زلزلة السَّمتِ المهزوم

تمتدُّ يداك، لتأخذ أنت بأيدينا وتُكفكفَنا

نتهرّب من عينْيكَ، ولكنّ صمتُك يفضحُنا

تنهارُ سدودُ ملامحنا

ينتفض الوجُه المُعَتَصرُ المحموم

ينتفضُ الصوتُ المشروخ المكتوم

ينتفض الجسدُ المهدود المسموم

تنقضُّ عنيفًا كالنسر

فى ومْضة شِعر

تتحدّى كلّ عذاب القهر

وتفاجئنا

أنك - فى وجهِ البابِ المسدود -

أقوى منّا

نخجلُ، ونقوم!

* * *

فى زمنٍ يعلنُ عن حاجتِه لكبرياء

يخرجُ فيه السفهاءُ من جحورهم

والأدعياءُ من شقوقهم

ويعتلى المخادعون كلَّ موكبٍ وساحة

ليملأوا الدنيا، ويزحموا الفضاء

فى زمن ملوكُه السُّوقةُ والطَّغام

وناصحوهُ أغبياء

يلبس فيه السِّفْلَة العُصاةُ، واللّصوص

مُسوحَ أنبياء

ينداح صوتُكَ الجسورُ واخزًا، وصاعقا

مُحذرًا من هجّمة الوباء

ومن غدٍ يطبقُ فوْقَنا، ويحجبُ السماء

يموجُ فى صواعق البلاء

ويصبحُ الأعداءُ فيه أصدقاء!

ينداحُ صوتك الجسورُ واخزًا، وصاعقًا

يُطلق فى كلِّ اتجاه

رصاصةُ الخبئَ فى قصائد الهجاء

لعصرنا المفروش بالوحولِ والألغام

للقابعينَ فى قرارِ الجُبِّ كالنيام

والعاجزينَ عن بلوغ قامتك

لأنهم أقزام

والباحثينَ فى بلاغةِ الكلام عن عزاء

وفى أكاذيب الطُّغاة عن طعام

واخترْتَ أن تكونَ،

ـ حيث ينبغى لصوتكَ الفريد أن يكون ـ

كتيبةَ الصُّدامِ والإِقدام!

* * *

فى زمنٍ يحمل عارنا ووجهنا القبيح

لما سقطْنا فى شباك القهر

وانبهمت أمامَنا المسالك

وظنّ أعداءُ الحياة أن صوتنا الحبيس لن يبوح

وأنَّ عطرك النبيلَ لن يفوح

منطلقًا خلْفَ سياجِ الأسْر

نرفُع من رؤوسنا الغرقى، ونستديرُ

باحثينَ عن شُعاعةٍ منْكَ، وعن إشارة

تردُّنا إلى اتجاهنا الصحيح

من قبل أن نصيرَ قَبْضَ ريح

ترحلُ أنت غاربًا

مُندفعًا إلى الثرى البعيد فى صعيد مصر

مُضمَّخًا بما نزفْتَهُ من حكمةٍ وشعر

وما اختزنْتَهُ من شُعلةٍ وجمر

وما اعتصمْتَ فيه من إباء!

لاتلتفتْ حوليْكَ، ليس ثَمَّ من أحد

الكونُ كلُّهُ فسد

وأصبح المُهرِّجونَ... شعراء!

قطار الجنوب

فى عيونِ المحطَّاتِ يرقُد بوْحُ انتظارٍ

ويُقلعُ بَرقُ انخطافْ

تستطيلُ المسافةُ بين المودِّعِ والمترجّلِ،

بين المغامرِ والمتوجّسِ،

بين الشجاعِ المحاذرِ والغرِّ.. ذاك الذى لايخاف

والصبايا افترشْنَ المساءَ،

وأشعلن أشواقَهنّ دخانًا صعد

جئْنَ، هيّأْنَ كنْزَ الصدورِ الخبىءَ،

لحلمٍ جرىءٍ تدثرْنه،

ولوعدٍ تنظَّرْنهُ،

وليالٍ مُجهزةٍ للقِطاف

ياقطارَ الجنوبِ المسافرَ، مخترقًا صبواتِ المدى،

طائرًا بالرَّشَدْ

لا الوجوهُ الحبيبةُ عادتْ،

ولا الشوقُ منطفئٌ فى عيون البلد

الصبايا احتشدنَ،

انتظرْنَ،

انطفأْنَ،

وأوشكْنَ يبكينَ،

أوشكْنَ يرحلْنَ،

مازال خيطٌ رفيعٌ

وصبرٌ وجيعٌ

ودائرةٌ من شعاع بعيدٍ،

يُلوّحُ فيها ولدٌ!

* * *

أمهُ ودعتهُ،

انحنت فوقهُ، جذعَ صبارةٍ

ضمةً للذى.. هل تراهُ يعودُ؟

وهل يسعفُ العمرُ؟

وانداح ليلُ السفرْ

وانحنت خلفه شجراتٌ تعودنَ أن يستمعْنَ حكاياتهِ

وهو ينشدها للقمر

وتعثَّر جدولُ ماءٍ،

تمنَّى يلاحقهُ

ـ كان يمرحُ فيه ويَشْغَبُ منذُ الصِّغر ـ

ياقطارَ الجنوب تمهلْ

فهذا صغيرُك مندفعٌ للمصيرِ الذى ينتظر!

صفرةٌ فى الجبينِ،

دمعٌ بعينيهِ،

والصوتُ لايسعفُ الآنَ،

يامُهجةً.. لاتَقرّ

يستديرُ الزمانُ،

ويسّاقطُ العمرُ

راحت تغيمُ الوجوهُ القديمةُ

ترحلُ شيئًا فشيئًا إلى الظلِّ

تبحرُ حتى ضفاف النهرْ

ويغيمُ القمر..

- مرَّةً.. لو يعود؟

- فيم هذا التساؤلُ ياأمُّ،

ياعبقَ الأرضِ،

ياغابةِ النخْلِ

ياشجرَ السنديانِ،

وياموطئًا للخطى سار فيه الفتى مُذ وُلد

ياقطارَ الجنوب اتَّئدْ

إن وجه الفتى يتشكلُ

قلبِ الفتى يتبدّلُ،

لونَ الفتى يتحولّ،

ياأمُّ

أخشى عليك اللقاءَ الذى لن يفيدَ

النداءَ الذى لايُردُّ

فأنسى للسكونِ،

المسافةُ حلمٌ، ووجه الليالى بَددْ

والطريقُ الذى سار فيه الفتى..

لم يعدْ منه يومًا أحد!

* * *

عارىَ الصدرِ لم تخفض الرأسَ،

أو تتحسّسْ مكانًا لخطو القدمْ

والسهامُ التى تصطفيك وتمرقُ حوليكَ

سهمان: سهمُ الصحابِ، وسهمُ انكسار القَلَم

والهمومُ التى تحتويك سمومٌ تصبّتكَ،

واقتنصتْ فيك مُتكأ للعدم

عارىَ الصدرِ، مستقبلاً للعواصف،

مشتعلاً كالحمم

نازفًا، نازفًا

والدماءُ التى كم تسيل، وتترك فى الأرض آثارَها،

تتجمعُ ثانيةً،

فيعاودك الصحو،

وهمُ الأمانِ،

وينسيك وجهُ الحياةِ انتصار الظلم

واندلاع الألم

نازفًا، نازفًا

والتحدى: كلام له رهبةُ الموتِ،

وقْعُ اختراقِ الحرابِ،

تُلقّنهُ للملأ

الكلامُ الذى حملتهُ الرياحُ

تناثر عبرَ السهولِ، وعبرَ البطاحِ،

وطوّف فى كل أرضٍ، وفم

حين أغفيت، كان الفؤاد الذى كم تفتت،

كان الإِناءُ الذى فاض لما امتلأ

والشعاع الذى قهرتهُ الطعانُ

تسرَّبَ مُنطفئًا،

وابتعد!

* * *

يا قطار الجنوبِ الذى حين يصفرُ،

يمتدُّ فينا النشيج

فورانُ الدموعِ الحبيسةِ فى القلْبِ يصعد

فإذا فى العيون المطلةِ، تلك السحابةُ تغشَّى العيونَ

ولاتتبدَّد

ها أوانُ التماسكِ،

إنا كبْرنا،

ويفضحنا الدمعُ،

يخذلنا الوجدُ

لكّننا نتجلّدُ..

ما الذى حين تصفرُ

ينخلع القلبُ منا

ونهوى نعانقُ فى الأرضِ وجّهَ حبيبٍ مُوسّد

ما الذى حين تُقبلُ،

يملؤنا بانتظارٍ ثقيلٍ،

لو همٍ قديمٍ تجدّد؟

ما الذى حين تُبعدُ

يقذفنا للضياع

ويتركنا للشّجى.. والتوحُّد؟

فورانُ الدموعِ الحبيسة فى القلب يصعد

جيشانُ الهمومِ الخبيئةِ فى الكون يمتدّ

ياقطَار الجنوبِ المسافَر عَبْرَ القلوب اتئد

يا قطار الجنوب اتئد..

الغــزاة

يا أحبّاى، وقد طال الزمنْ

ما الذى يبقى لنا غيرُ شجَنْ؟

وحديثٌ لحديثٍ ينتهى

ولقاءٌ بلقاءٍ مُرتهن

صوّح العمرُ، وصِرْنا بَددًا

نتوارى فى تجاعيد المحنْ

فتلفتّنا إلى أترابنا

وبأيدينا حصادٌ من حزَنْ

وتَنادَيْنا، فلم نلقَ سوى
هتفةِ الريح، وترجيع الدِّمنْ
فنٌّ عشنا عليه زمنًا
هرِمَ الصوتُ، وماشاخَ الفنن
حسبُنا زهوة أيامِ الصِّبا
ورؤى العمرِ الذى كم يُمتحن
كلّما ارتدت إلينا ذِكرٌ
سكن القلبُ إليها، واطمأنّ
مسرحٌ يُطوى، ويُطوى سامرٌ
وهوى النفس بقايا من فتنْ!

* * *

زمنٌ يسرقُ منّا عطر الأحبابْ
يتخطّفهُم وجهًا وجها
نتلفتُ لانلقى منهم أحدا
نتناثرُ أشلاءً من عمرٍ كان،

وصفو كان،

وخطْو كان لنا

أضحى بددًا

فالعمر سدى

وبقلب أزقّتنا يُقعى وجهُ الظلمة

يترصدُنا ويداهمنا

نتساندُ،

يشكو الواحدُ منا لأخيه،

ويخشى.. لا يلقاه غدا!

وتُلاحقنا عجلاتُ الليل،

وقاطرةُ الأحزان الجهمة

نتخفّى فى السّاحاتِ،

وبين شِعابِ المنعطفاتِ الخلفية

ونظنُّ بأنا أفلتنا

هيهاتَ، فلم نفلت أبدا

ولأىٍّ مدى!

* * *

يا أحبّاىَ، ولم أسعدكمو

بحديثٍ تتصبَّاهُ الأذنْ

هذه حالىَ فى صُحبتكم

كبدٌ حرَّى، وموتٌ مُختزن

ونداءاتٌ تُدوّى حولنا

برحيلٍ عن وجودٍ قد أسِن

أنا إن لم أفتح القلب لكم

وأعزِّ النفْسَ حُبًّا، فلمنْ؟

مدُنُ الحلمِ تناءتْ فى المدى

فمتى نضحى غزاةً.. للمدن!

مضحك الملك

الملْكُ لك..

الملك لك..

فكلُّ ماتقوله صواب

وحكمةٌ لم يحوها كتابْ

وينحنى المسامر الأنيسْ

وبهجةُ الندىِّ والجليسْ

والحافظُ الأسرارِ والأخبار والحكايا

يخرجها من كُمّهِ النَّفيس:

«ياسيدى

ما أجْملَك!

ما أعدلك!

لولاك مادار الفَلكْ

ولانتهى التاريخُ من بلادنا، بلا جدال

ألستَ أشجعَ الرجال!

والطاهرَ النقىَّ فى مهابةِ الملَكْ!»

وينتشى المَلِك

منتفخَ الأوداج كثَّ الحاجبينْ

محدقًا إلى البعيد

مُصطنعا تكشيرةً أو اندهاشة

أو راسمًا على الجبين سِحْنة الملائكة

وعندما يهمّ بالكلام

يسَّاقطُ الحديث من فمه

فرقعةً تذوب فى الصدى

يظنُّها العقولَ تستمع

وأنَّها القلوبُ تنخلع

لأنَّ شيئًا قادمًا كأنه الرّدى..

وضاع ظنُّه سُدَى

فقد تمخّض الزئيرُ عن هشاشة

ويسقطُ المسامرُ الأنيسُ بينَ بينَ

يحارُ كيف يبتدئ

أو يشبكُ الكلامَ من جديد:

«ياسيدى

الملك لك

لم يقدروكَ قدرَك العظيم

ولم تطلْ قاماتُهم ليبصروا

ما أبصرتْ عيناكَ من خبىء

وليس فيهم حيلتك

ومكركَ المراوغُ المداورْ

كأنه نسيم

حين تصوغُ من عجائبِ القرارِ فعْلَك الجرىء

وسعْيَك المبارك البرىء

مستلهمًا شمائل الرسول

ونفحةَ الملَك»

* * *

يجتمع الصغارُ حول تحفةِ المسامر الأنيس

يُسمعهم ما دارَ فى مجالسِ السَّمر

مطاطئين فى ذهول

محدّقين فى العجائب التى يقول

وفى الغرائب التى لم يحوِها كتاب:

«نشهدُ أنَّك المقرّب الأثير

والصاحبُ الخطير

وأنَّنا بين أصابعك

تملكُنا، كيف تشاء

فيستحيل شاعر الربابة

فى سمْتهِ المنفوخ

ربّما يجالس الممسوخ

والقامةُ التى اعتادَتْ صنوفَ الانحناء

انتصبت فارعةً تهتزُّ كبرياء

وتستدير فى شموخ

لتمنْحَ الصغار لفتةً أو لفتتين

وينتهى الكلام

تسكتهم إشارةٌ من اليدين

أو نظرةٌ بطرْفِ عين

ويزحف الصغار ظامئين للمزيد

ماضرَّ أن يكونوا تابعينَ للتبيع

فليُحسنوا الصنيع

لعلَّ فى عطائه مايشملُ الجميع

وليهتفوا،

وليطلقوا البخورَ والأشعار
أليس سيِّدَ السمّار
والواحدَ المعدودَ فى غرائب الأسفار
والآمرَ المطاعَ فى بوَّابةِ الرجاء
فمن يلامسْ حَوْضهُ ملكْ
ومن يُخالف وردهُ هلكْ
ومن تزغْ عيناهُ ساعةَ اللقاء
أغرقه التيّار!

* * *

الآن يخرجُ المذعورُ من مكامنه
مُفتِّشًا عن وجهةٍ أخرى، وعن سماء
تُظلُّه من غضبة البشر
ومن شماتةِ الذين عاينوهُ فى الرَّغام
قولوا له - إذا لقيتموهُ هائمًا بلا دليل
فلم يزلْ يعيشُ فى غيابةِ الحَلَكْ

مُنتشيًا بجهله العظيم

وسرِّهِ المجرَّبِ القديم

وقفزهِ من غايةٍ لغايةٍ

وفنهِ فى لعبة الكلام ـ :

«أفقْ..

فإن من ظننْتَهُ المللك

قد كان يومًا، مضحكَ الملك

فهل وعيّت مقتلك!»

الليـل.. والمشانق

تململَ ليلُ الخنادق

وأعولَ صمتُ البنادق

وطاشت رصاصات من صوبوا

بكلّ اتجاه

ومازال وجهُ الحياةِ

قبيحًا

وعمرُ الطغاةِ

فسيحًا

وفى آخر الليلِ
يقبعُ وجهُ المشانق!

* * *

تموجُ المدينة بالقهرِ،
تُخرجُ أحشاءَها،
تجوعُ،
فتأكلُ أبناءَها
وتُقعى
ليعبرَ من فوقها الفاتحون
يراودها الصّحوُ،
ترفعُ رأسًا
وتُطلق همسا
تلاحقها عربداتُ الغزاة
وتسقطُ تحتَ صهيل الطغاة
تُلاحقها طعناتُ السنابكْ

تخورُ المدينةُ،

تلفظُ أنفاسَها فى سكون

وينداحُ فى الأفقِ لحنٌ حزين

يُغنّيه - فى الظلمة - العابرون

تموجُ المدينة بالعهرِ،

تكشفُ سوءتَها للعيون

وتخرجُ عاريةً،

تتناثر - حيث تسيرُ - الظنون

وتبدعُ..

هذا زمانُ التشتىّ

وهذا أوانُ التغنّى

وعصرُ جميعِ الفنون

وتبدعُ..

قبل انطفاءِ الشعاع

وإيقاعُها صرخاتُ الجياع

تدمدمُ، عارمةً، لاتبين

وتبدعُ..

تهتزُّ مثلَ الجوارى

توغَّل فيها خيال العبيد

يسيلُ لعابهمو من بعيد

ويضرَى سعارهُمو بالمزيد

وتجحظُ أعينهمُ فى جنون

ويملكها - آخر الليلة - المتخمون!

* * *

وكيف تنامُ؟

وكفّك فوق الزنادِ،

ورأسك مشتعلٌ بالحريق

تشعَّب سيلُ الفصائلِ

وحان شتاتُ القبائل

فكلٌّ بوادٍ

وكلٌّ ينادى

وكلٌّ لغايته فى طريقْ

فكيف الأكفُّ الشتيتةُ تهتزُّ كفّا

وكيف الصفوف البديدةُ ترتجُّ صفّا

وكيف تنامُ؟

وأنت الرفيقُ تحاذر خطوَ الرفيق

وهجْسَ الشقيقْ

وحارسُك المرتجَى.. لايفيق

وماعدتَ تدرى

وسيلُ الرصاص بكلّ اتجاه

أياتيك من خائنٍ.. أو صديق!

وكيف تنامُ؟

وكل الهمومِ وسادٌ

وكلّ الحشايا سهادٌ

وكفُّك فوق الزنادِ

مُصوّبةٌ وحدهَا للمضيق!

* * *

يظلُّ الطغاةُ طغاةً..

لأنا نُطيل لهم فى الحياة

ونلعقُ أقدامهم بالجباه

وندعو لهم فى الصلاة

وحين يُدوى النفير

نطيرُ خفافا

ونعدو ارتجافا

ونصبح نحن الضحايا.. ونحن الجناة!

يظلّ الطغاةُ طغاةً،

ونحسبُ أنَّ الزمانَ الولودَ عقيم

وأنّ البلاءَ مقيم

وأنا صغارٌ..

تُضعضنا قسوةُ التجربة

فتفجؤنا ـ حين نُغفى ـ الزلازل
وتوقُظنا دمدماتُ القنابل
مصوّبةً فى الصميم
فيسقط وجهُ الظلامِ الدميم!

كلاسيكية

هذى طريقى، وهذا منتهى أمدى

وأنتِ أمسى، فلا تستمسكى بغدى

وقفتُ عُمرى على وهم ظفرتُ بِهِ

والآن ياوهمُ ما أبقيتَ ملءَ يدى

وقفتُ صحوى على أفْق طلعتِ بهِ

شعاعَ مستدفئٍ يدنو لمرتعد

وقفتُ خطوى على دربٍ به اشتجرتْ

هوجُ الرياح وعضَّ القيدُ فى جَلَدِى

وصـوَّحتْ لحظاتٌ كنت أحسـبُها
زادًا وريًّا لمخذولِ المتاعِ صدى
كانت جناحينِ من نعمىَ ومرحمةٍ
ومن تمازجِ أرواحٍ ومعتقدِ
رفيفُ أنفاسِها أنفاسُ عافيتى
وبردُ أندائها ينسابُ فى كبدى
أطبقتُ عينىَّ، يارؤيا بها اكتملت
ملامحُ الأبدِ الغافى... بلا أبدِ
حتى صحوتُ على دنيا بلا أفق
ولا شعابٍ، ولا فجْرٍ ولا عمدِ
تزاحمتْ فيكِ أضدادُ الحياةِ، فلا
نجاةَ من صدمات القهْر والعُقَدِ
وأفرخَتْ فيكِ أوهامُ الطريقَ، فلم
تدْنُ السبيلُ لنائى العيشِ مفتقدِ
توقَّف الزمنُ العاتى، وخلّفنى
طريحَ حُلمٍ، بعيد المنتأَى بددِ
هذا صهيلُ الليالى فى محابِسها
وتلك حمحمةُ الأيامِ فى الوتدِ

وأنتِ أسطورةٌ فى اليمِّ غـــارقـــةٌ
تشى بهـــا فـــورةُ الأمـــواجِ بالزَّبدِ
ورشـفـــةٌ من شـــراب سـائغ عــذُبتْ
تناقلتْهـــا يدُ الأقـــداحِ كـــالرصـــدِ
لاتتـبعينى، كفانى خطوُ مبتئس
أو تسبقينى، كفانى نأىُ مبتعدِ
كـــان الزحـــامُ يداوينى ويغـــرقنى
فصارَ بعضَ عزائى صمتُ منفردِ
لم يبق من غـــايتى وعـــدٌ يُعللنى
ومن ســراب الرؤى كشفٌ لمجتهدِ
اليــوم أحكمتِ الأفـــلاكِ دورتَهـــا
هيهاتَ يرجعُ عمرٌ بالحنانِ ندى
ياويلتـــاه وظلُّ العـــمـــر مـــرتعشٌ
والكونُ خال، وما فى البعدِ من أحدِ
إنّى دفنتُكِ فى نفسى وفى خَلَدى
إنى بعثتُكِ فى رُوحى وفى جسدى!

رومانتيكية

من أيِّ البحريْنِ أخاف؟

البحرِ الممتدِّ أمامى

أم بحرٍ يغرقُ فى عينيكِ

مرتجِّ الموجة والإعصار

لا شاطئَ فيه.. ولا مجداف!

* * *

شارفتُ اليمَّ، ولم أغرقْ

وقبستُ النارَ، ولم أُحرقْ

وعزفتُ لحونًا من ظمأٍ

ودققتُ على الباب المغلقْ

ورجعتُ بعثرةِ أيامى

لدوائر من صمتٍ مطبقْ

تنزعنى من أضيق رؤيا

ترمينى فى شَرَكِ المطلقْ

ترتجُّ بأعماقى.. لغةٌ

حيرى بالسرِّ، ولم تنطقْ

من يملك ذاكرةً تُحصى

طعناتِ اللجّةِ فى زورقْ؟

أو يخلع أقنعةً تُخفى

لعثمةَ الحاجةِ.. فى منطقْ؟

ها أنتِ على سقف الدنيا

ميلادُ حياة.. تتخلّقْ

وشعاعٌ بالرحمة يدنو

لخيالٍ مكدودٍ مُرهق
وأنا فى اليمِّ، فمن يدرى
أنجو بحياتى، أم أَغرق!

* * *

نافذتى فُتحت، وأطَّلت
عيناكِ، فشمسكِ إلهامى
أَنَّى أتلفتُ، يتبعنى
سريانُ العطرِ، بأنسامى
وأجئُ إليك، يظللّنى
صوتٌ بالبشرى مُترامِ
أستجمعُ لحظاتِ اللقْيا
عقدًا منضودَ الأيامِ
وأظلُّ تلاحقنى صورٌ
تتحلُّ ملايين الأطيافْ
عن عمر، عشناهُ وئيدًا

نغمًا بأناملِ عزافْ

وأنا من حولكِ، أستدنى

موفورَ ثمارِ وقطافْ

وأخوضُ اليمَّ، ولا أخشى

أهوال الموج الرجّاف

فلعلِّى أُمسك لؤلؤةً

ترقد فى قاعِ الأصدافْ

* * *

من أىّ البحرين أخاف؟

البحر الممتدّ أمامى

أم بحر يغرق فى عينيك

مرتجٌّ الموجةِ والإِعصار

لاشاطئ فيه.. ولا مجداف!

قصيدتى.. والسفر

قصيدتى حملتُها معى

يثقلُ حملُها

تسقطُ من أصابعى، ولا أعى

أظلُّ سائرًا، أجرجرُ الخطى

أجرجرُ القصيدةَ التى تساقطت

وكُلَّما أبعدتُ فى مسيرةِ الغبار

تشققتْ أصواتُها

واختلطت أناتُها

واشتبكت حروفُها بحافَّةِ الجِدار

فارتمى

مُلازمًا لموقعى

الآن.. ياقصيدتى، ونحنُ فى سفر

ماذا تُراكِ تفعلين بى؟

العبءُ لم تعد تُطيقه يدايا

ولا الطريقُ صار كاشفًا مدايا

ولا النهارُ مثلما عهدتُه نهار

ولم تزلْ أصداؤكِ البعيدة

تئزّ فى خُطايا

وتحتمى بأدمعى!

بالأمس، كنت تعرفين علَّتى

وتكشفين صبْوتى

تبنين لى من لمسةِ الحنانِ، من كلامِكِ المُجنَّحِ الوثيرْ

مأوىَ يضمّنى

وتفرشين من سحابةِ الألوان والعطور

ظلالَ واحةٍ

ترفُّ فى ربوعها خميلتى

فمالنا، ونحنُ فى سفرٌ..

أوشكتِ تغدرين بى وتهزئين

تُلامسين مرّة، وتفلتين

تراودين مرَّة، فأسرع الخطى

حتى إذا دنوتُ للحمى

ـ دنوتُ وارتميتْ ـ

تُراوغين

وتكتمين عن مسامعى نداءكِ البعيدَ فى المدار

أصيحُ: يا لغربةِ الفراق، والتسّيار

أنا الذى نُفيت عن عوالمى

واحترقتْ قوادمى

ولم تعد قصيدتى

تضئُ رحلة الوجودِ، والأسفارْ!

للعبير اختناق

«من وحى المهرجان الشعرى الذى عقد فى بغداد خلال شهر مارس ١٩٨٥ فى مناسبة الاحتفالات بأعياد المرأة العراقية وعيد المرأة العالمى، وشارك الشاعر فى هذا المهرجان ممثلاً لشعراء مصر.

ويبدو أن وصول الشاعر إلى بغداد كان سابقًا لسائر الشعراء بعدة أيام، مما جعله يكشف صبيحة وصوله أنه الرجل الوحيد فى فندق الرشيد بين أربعمائة امرأة يمثلن نساء العالم».

أخرستنى العيونُ والأحداقُ
فكلامى الشرودُ والإطراقُ

الخطى لهفةٌ، وبعضُ انعطاف النفـ
ـسِ وجدٌ ولهفةٌ واشتياقٌ

وجنــاحـــــــانِ مـن حـنـيـن يـرفًّا

ن، فـــهـــذا المدى ضُحىً وانـعـتــاقُ

والـهـــوى مـــــركَبى لدار حِمــــاهـا

وحـــمــــاهـا الـنـجــومُ والأشــــواق

قــيـدتْنى سـبـيكةُ العطرِ، فــارتـعـ

تُ، ولــلــعــطــرِ ســطــوةٌ ووثــاقُ

واحـتـوتنى مـفـاتنُ الـسـحــر، لحظٌ

بــابـلــىٌ، وكَرمــــــــــــةٌ وعـنــاقُ

واسـتـبـيـحت ممالكى، فـخـيــالى

مـــشــرئبٌّ الخطى، وقلْبى يســـاقُ

والـهـــوى دائرُ الحُمـــيَّا، فـــقلبٌ

مـــســتـجــيــر اللظى، وقلبٌ مــراقٌ

عنفـوانُ الجـمــالِ يعــتــو، فـأهـفـو

وبـعـــــينىَّ من لظـاهُ احــــتــــراق

حيثمـا درتُ، يصـعدُ الدفـءُ، طقسًا

عـــبــقـــريّا، وتُجــهش الأعــمــاقُ

ويغــيب المحلُ الجـْـديبُ، وتحـــيـا
مـن جـــــــديدٍ، وتنــبـتُ الأوراقُ
خــفــرٌ فى العــيـون أن تكتم الشـجْـ
ـوَ، فللشّجْوِ فى العــيــونِ انبــثــاقُ
وارتـدادٌ إلـى المســـــافـــــاتِ ينـأيْـ
ـــنْ، وينـأى الـومــــــيضُ والإبراقُ
السنونَ التى قطعْنا.. اغـــتـــرابٌ
والطريقُ التى احـــتـوتْنا.. فـــراقُ
غـارقٌ فى العـيـونِ هـيـهـات أطـفـو
يـالـقـلـبِ يـلـذُّه الإغـــــــــــراقُ
رب ألـقـــــــيْتـنـى بـوادٍ ظـلـيـلٍ
تتـــــمـنـى ورُوده الـعـــــشْـــــاقُ
مـا الذى الآن أشـتكى؟ رُبّ نعـمى
قــتلتْنى، وللعــبــيــرِ اخـــتـنـاقُ!
قــد يُطاقُ الجـمـــالُ فــردًا، ولكن
كلُّ هذا الجـــمـــالِ كـــيف يطاقُ؟

وجـــــه

وجهٌ فى واجهة الموجِ،

وعينٌ تعبرُ نحو المطلقِ،

تحلم بالإعصار الآتى

هـذا وجهُكِ؟

أم عاصفة راحت تتجمع

ونذيرٌ بالغضب العاتى

كنت أمنّى النفسَ،

وأدنو منكِ،

وأنزعُ قلبى من دائرة اليوم الكاذبِ،

علّى بين يديك أفيقُ،

وأغسلُ ذاتى

لايكفى هذا البحرُ،

ولا هذى الشطئان الممتدّةُ،

أو هذى الريحُ المُشرعةُ

ولا هذا الوجه المعشوق الغائب

حتى أدنو

وأكفكف دمعى، وصلاتى

ها أنتِ تُسيئينَ لقلبى

- ياقلبى عجِّلْ بالعودةْ

ها أنت تقصّين جناحى

- يا أفقى مازلت بعيدًا

ها أنت تصدّين ندائى

- ياصوتى.. لاتوغل فيها

حتى لاتتبدّدَ وارحلْ

لمالك، مازالت تجلو طلعَتها،

تكشفُ عن فتنتها،

وكنوز مباهجها،

ولعمر ممتدٍّ أجملْ

لكنى ماعدتُ ببابك

أتصبىّ لمسةَ أعتابك

أو أَرِدُ النورَ بمحرابك

فأنا مشدودٌ لمصير

يسكنُ خارطة المستقبل

ترحل..؟

أم عنها لاترحل!

ماعاد سؤالكَ يشغلنى

أقلعتُ، وفى البعد شراعى

مملوءٌ برياحى مُثقَل

ياوجّها مكروبَ الرؤيا

إنّى بغباركَ لا أحفل

أقلعتُ،

وأنت هنا تسأل!

مواجهة

كان يؤدّبنى.. ويقول:

«ياولدى

هذا قدرُك..

أن تحيا فى سيرك العصر، ولاتنجو

تتعثر فى قبضة مهمازِيْهِ، وسطوة جلاديه

تسقط مابين الآهة.. والتصريح

فى زيّف اللغو ولغو الزيف

وتقول كلامًا محزونًا وعليلاً

يتدحرج من شفتيكَ إلى آذانٍ مُعوجّة

شُغلت عن كلّ كلامٍ أسّيان

بتعقّب مسّرى الصوت، وفهم مسارِ الريح

فانّجُ بجلّدك .

واخلع عنك رداء الحكمة، والبس ثوبَ السيرك

وبادرْ فى الميدان

ما أجملَ أن تتزيًّا كلَّ الألوان

فلعلَّ الله يبارك فى عمرى، وأراك

إنسان العصرِ المأمول

اللامعَ فى كلِّ زمانٍ ومكان!

* * *

ياشيّخى، وجليس فؤادى، ومؤانس رُوحى

لو تعلمُ قدركَ فى نفّسى

لكنّ، ها أنذا، ياويّلى، مفجوعٌ فيك

أوَ حقًّا هذى كلماتك؟

والوجه الشاحبُ آياتُك... وسماتُك؟

والصوتُ الراعشُ.. نبراتُك؟

ياويْلى، مفجوعٌ فيك..

يتدحرجُ زمنى.. لاضيْرا

لكنْ، أن تسقُط أنت؟

ياربّى.. قد وقع المحظور

وتمادى زيفُ اللغو، ولغو الزيف

فارفعْ مقتكَ عنَّا

وأَنلْنى بعض يقينى

كى أُحكم قبضَة هذا السيْف!

ملامح صينية

«من وحي زيارة الشاعر للصين»
(٢٤ أكتوبر - ٤ نوفمبر ١٩٨٥)

تتسكبُ الشمسُ على أعوادِ القمحِ،
فيُشرق وجهُ الصينْ
هذا الوجهُ المغسولُ بماءِ الحكمةِ،
والمختومُ بعبقِ الطينْ
يحملُ عينينِ كخطَّينِ،
بعيدَيْن كنجميْنِ،
عميقينْ كسرَّيْنِ،

ويبحرُ،

كلُّ الزمن قُلوعٌ وسفائن

ونداءٌ يدعو للمجهولِ،

فيوغلُ ليْس يخافُ التِّيهَ،

ولا يرهبُ وجهَ التنّينْ..

تتهمرُ خُيُوط النورِ،

يذوبُ الوجهُ الرائقُ حين يشفُّ،

وها..

تتلاصقُ بعضُ ملامحهِ،

تتقاطعُ فوق الوجه خطوطُ العُمرِ،

ويقفزُ فى العينينْ بريقُ الحزنِ،

ويثقُلُ عبءُ الحكمة،

آهِ..

امتلأ القلبُ، وفاضْ

العالمُ، كلُّ العالمِ، مذخورٌ فيه

منصهرٌ بين مراجِلِه،

جوهرةً تخرجُ من بين ثناياهُ،

والكنز ثمينٌ!

* * *

أىُّ الوجهيْن يلاقينى.. وأُلاقيهِ

هأنذا تحملنى كفُّكِ،

تتفرَّسنى وتُقلِّبنى

وتخطُّ خطوطًا فى وجهى

فكأنَّ الشمْسَ تُباركنى

أتسلَّلُ من بين أناملِكِ، وأدنو

أتأملُ كفّكِ:

يالخطوطِ العُمرِ،

ويا لكُهوفِ القَهْرِ،

ويالنتوء الجمْر

أىُّ الوجهيْنِ تراكِ؟!

الوجهُ الغابرُ؟

أمْ وجهٌ آتٍ.. لاندريه؟

يتخلَّقُ عبرَ شقُوقِ الأرض،

ويوغلُ ملء شعابِ النهرِ الأصفرِ،

يخرجُ من رحمِ الفولاذِ،

ويخطو فوق السورِ الأعظمِ،

ينقش زهوَ بطولاتٍ،

ويقيم على القمة عرسًا

ترقصُ شمسُ الحكمةِ فيه!

* * *

الآنَ، وهاأنتِ على القُربِ: عجوزٌ وصبيّة

تتخفى فى أروقةِ التاريخِ،

وتقفزُ فى إيقاعِ الجاز،

وتلعبُ بالوجهيّن..

تسكُننى الحكمةُ،

ثم يُراودنى النزقُ المجنونُ،

ويصهرنى مسٌّ حميّا

أتلامسُ فى جذعيْكِ،

وفى وجهيْكِ،

وأهتف فى نفسى العطشى:

هذا زمنُ السُّقيا

وأحلِّق طيرًا عبرَ معابدكِ المهجورةِ،

عطرًا بين روابيك الممتدَّةِ،

نجمًا يمرقُ فى جلواتِ الرؤيا

ضُمينى.. فأنا مُتّجهٌ للشرقْ

ضمينى.. فأنا محترقٌ كالبرقْ

وأنيلينى،

فى يوم العودة من ينبوع فراديسكْ

زهرةَ لوتسْ

تحمل لى من وجه الصين

عبقا مغموسًا فى الطين

يتناثَرُ فى كلِّ الدنْيا!



صدر للشاعر

(أ) دواوين شعرية

١ - إلى مسافرة (الطبعة الأولى ١٩٦٦، الطبعة الخامسة ١٩٩٣)

٢ - العيون المحترقة (الطبعة الأولى ١٩٧٢، الطبعة الرابعة ١٩٩٠)

٣ - لؤلؤة فى القلب (الطبعة الأولى ١٩٧٣، الطبعة الرابعة ١٩٩٠)

٤ - فى انتظار مالايجىء (الطبعة الأولى ١٩٧٩، الطبعة الثالثة ١٩٩٠)

٥ - الدائرة المحكمة (الطبعة الأولى ١٩٨٣، الطبعة الثالثة ١٩٩٠)

٦ - الأعمال الشعرية (المجلد الأول) (الطبعة الأولى ١٩٨٥، الطبعة الثانية ١٩٨٧)

٧ - لغة من دم العاشقين (الطبعة الأولى ١٩٨٦، الطبعة الثانية ١٩٨٧)

٨ - يقول الدم العربى (الطبعة الأولى ١٩٨٨، الطبعة الثانية ١٩٩٢)

٩ - عشرون قصيدة حب (الطبعة الأولى ١٩٨٩، الطبعة الثانية ١٩٩٧)

١٠ - هئت لك (الطبعة الأولى ١٩٩٢).

١١ - سيدة الماء (الطبعة الأولى ١٩٩٤).

١٢ - وقت لاقتناص الوقت (الطبعة الأولى ١٩٩٦).

١٣ - حبيبة والقمر (الطبعة الأولى ١٩٩٨).
١٤ - وجه أبنوسى (الطبعة الأولى ٢٠٠٠).
١٥ - الجميلة تنزل إلى النهر (الطبعة الأولى ٢٠٠٢).
١٦ - ملك تبدأ خطوتها (الطبعة الأولى ٢٠٠٢).
١٧ - العصفور الصغير (الطبعة الأولى ٢٠٠٢).
١٨ - أغنية لمصر (الطبعة الأولى ٢٠٠٣).

(ب) دراسات ومختارات :

١ - لغتنا الجميلة (الطبعة الأولى ١٩٧٣ ، الطبعة الرابعة ١٩٩٩).
٢ - أحلى عشرين قصيدة حب فى الشعر العربى (الطبعة الأولى ١٩٧٣، الطبعة العاشرة ١٩٩٧).
٣ - لغتنا الجميلة ومشكلات المعاصرة (الطبعة الأولى ١٩٧٩، الطبعة الثانية ١٩٩١).
٤ - أحلى عشرين قصيدة فى الحب الإلهى (الطبعة الأولى ١٩٨٣، الطبعة الرابعة ١٩٩٨).
٥ - العلاج بالشعر (الطبعة الأولى ١٩٨٢، الطبعة الثانية ١٩٩٤).
٦ - مواجهة ثقافية (الطبعة الأولى ١٩٨٢، الطبعة الثانية ١٩٩٤).
٧- معجم أسماء العرب: بالاشتراك (الطبعة الأولى ١٩٩١، الطبعة الثانية ١٩٩١).
٨ - عذابات العمر الجميل: (الطبعة الأولى ١٩٩٢، الطبعة الثانية ١٩٩٧).
٩ - ديوان عبد الرحمن شكرى: تقديم وتحقيق (الطبعة الأولى ٢٠٠٠).
١٠ - ديوان عبد الحميد الديب: مراجعة وتقديم (الطبعة الأولى ٢٠٠٠).
١١ - ثقافة الأسلاك الشائكة (الطبعة الأولى ٢٠٠٠).
١٢ - زمن للشعر والشعراء (الطبعة الأولى ٢٠٠١).
١٣ - الشعر أولاً والشعر أخيرًا (الطبعة الأولى ٢٠٠٢).
١٤ - الإغراء بالقراءة (الطبعة الأولى ٢٠٠٣).

(جـ) مؤلفات عن الشاعر :

١ - البنية الشعرية عند فاروق شوشة، تأليف الدكتور مصطفى عبد الغنى (١٩٩٢).
٢ - شعر فاروق شوشة بين الرؤيا والإبداع، تأليف الدكتور محمد السيد سلامة (١٩٩٩).

الفهــرس

إلـى مسافـرة

العيون المحترقة

لؤلؤة فى القلب

فى انتظار مالا يجىء

الدائرة المحكمة

لغة من دم العاشقين

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

ص. ب : ٢٣٥ الرقم البريدى : ١١٧٩٤ رمسيس

WWW. egyptianbook. org. eg

E - mail : info @egyptianbook.org. eg